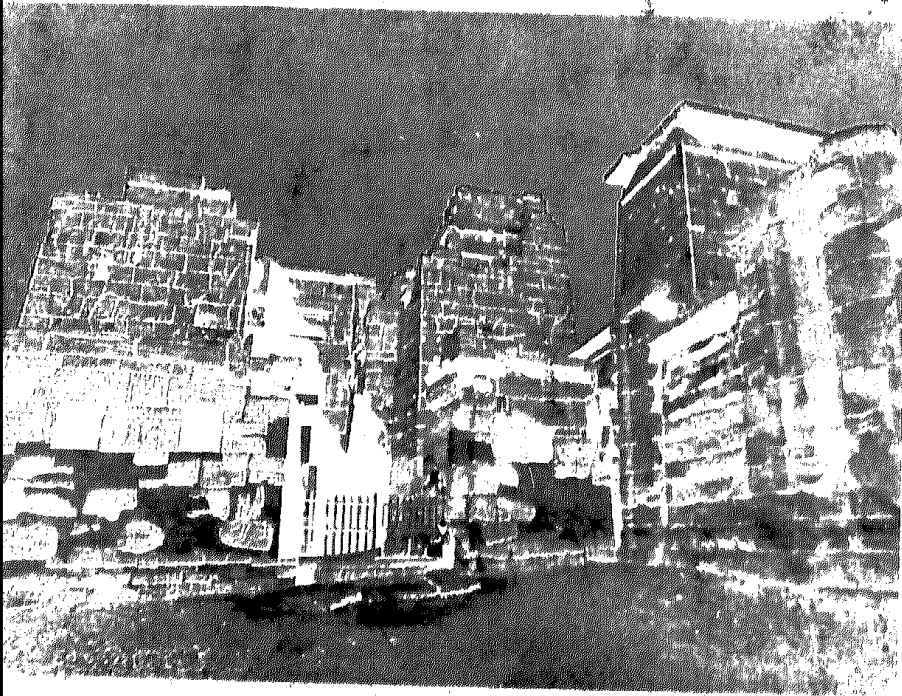


المؤرخون وعلم الآثار



تأليف

الدكتور على حسن



الموجز في علم الآثار

تأليف

الدكتور على حسن



المدينة المستنيرة العتبات للكتاب

١٩٩٣

شكر وتقدير

إنى لأذكر - بالفضل والشكر - عالم الآثار البريطاني « إمري » ومساعدته « هارى سميث » - لقد لقننى ذلك العالم الراحل أول درس عملى وعلمى فى فن الحفر والتنقيب ، وأشهد أنه نفعنى فجنبنى الشذذ وحذرنى من الزلل .

أشهد أننى نعمت بنصائحه وأنها كانت كالدواء ، مذاقه مر وفعله واق من الشر والضر .

كذلك أخص بالشكر العميق والعرفان شيخ علماء الآثار المصرية المرحوم الدكتور سليم حسن الذى مهد أمامى الطريق لدراسة علم الآثار وكان مثلاً يحتذى به فى قوة الإرادة والمتابعة على الدرس والتحصيل .

كذلك أتقدم بخالص الشكر للهيئة العامة للكتاب وعلى رأسها الأستاذ الدكتور سمير سرحان على إعادة طبع هذا الكتاب .

المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

دراسة الآثار القديمة من أبنية وتحف دراسة لم يعرفها الأقدمون ، ولم يهدفوا إليها ، بل هى ثمرة من ثمرات المدنية الأوربية الحديثة

وقد ظهرت أولى خطوات هذه الدراسة فى أول الأمر فى جمع التحف المختلفة التى خلفتها الأجيال السابقة .

لقد كانت المتاحف غير معروفة حتى وقت قريب ، ولكن فى العصر الفاطمى قام الخليفة المستنصر بالله والذى كان يعيش فى القاهرة إبان القرن الحادى عشر الميلادى بإنشاء أول متحف أثرى فى العالم .

والغريب أنه قد توفرت فى هذا المتحف أهم خصائص المتاحف الأثرية كما نعرفها اليوم ، والاختلاف الوحيد هو أن الغرض من إنشائه كان للمباهاة والافتخار .

ولم تعرف أوربا المتاحف إلا بعد ذلك بحوالى خمسة قرون أى قبيل القرن السادس عشر الميلادى خلال عصر النهضة

الأوربية ، وأخذوا ينظرون إلى آثار وحضارة اليونان والرومان نظرة إعجاب وتقديس ، حيث إن هذه الحضارات بالنسبة لهم كانت أصل الحضارة الغربية والمنهل الذى يغترفون منه ويسيروا على هديه .

وإبان الثورة الفرنسية أصبحت قصور الملوك والأشراف بما حوته من تحف أثرية ملكا للشعب ، وأصبح قصر اللوفر بما فيه من تحف نفيسة جمعها ملوك فرنسا من كل أنحاء العالم خلال العصور المختلفة متحفا ضخما يرتاده الزوار .

وخلال القرن الماضى وأوائل هذا القرن بالذات بدأت الخطوة الثانية من دراسة الآثار ، إذ أخذ فريق من العلماء الأوربيين يهتمون بالبحث فى التراث القديم ، فولد بذلك علم الآثار بين جدران المتاحف ، ثم اتسعت دائرته فشملت دراسة المباني الأثرية القديمة ، ثم زادت اتساعا فاتجه العلماء الى التنقيب والحفر عن آثار الماضى فى كثير من بلدان العالم ، وخاصة بلاد الشرق القديم ، وذلك لإيمانهم بأن الآثار هى المصدر الأول والمعين الأصيل الذى ينبغى أن يرده المؤرخ فيستقى منه أنقى عناصر المعرفة وأصدق صورها التى تعينه على دراسة ألوان الحياة القديمة فى نواحيها المختلفة ، ذلك لأنها عاصرت الأحداث ، فأشركها القدماء عن قصد - أو غير قصد - فى تخليد حضارتهم .

ولكنها فى الوقت نفسه مصادر بالغة الصعوبة . حافلة بالمشقات ، فالآثار كثيرة ومتنوعة بل ومشتتة أيضا ، ولا يزال

الكثير منها مدفوناً في باطن الأرض ، يقتضينا الوصول إليه كثيراً من الجهد والعمل ومزيداً من الصبر ، كما يقتضينا العثور على الآثار ، إعادة النظر دائماً في معلوماتنا وآرائنا وأسلوب الحفر الذى نقوم به .

هذا بالإضافة الى قلة ما بين أيدينا من تراث بعض العصور المظلمة ، مما يجعل تسلسل الأحداث والتطور الحضارى تتخللها فجوات وثغرات .

إن ما احتفظت به الأيام من تراث وآثار قد بهر شعوب العالم الحديث وخاصة أهل العلم والمعرفة وعشاق الفنون بل والباحثين أنفسهم المتخصصين في هذا الميدان لأنهم يجدون كثيراً من الشواهد التى تثبت تأثير علم الآثار في ميدان المعرفة والحكمة والعلوم الأساسية والإنسانية .

ونحن هنا نعرض لموضوع صعب لم يعرض له الكتاب والمؤرخون في تاريخ الشعوب إلا بعد دراسات عميقة ، ثم دقيقة مضنية فى آن معا ، دراسات اقتضت منهم كثيراً من الجهد والصبر وطول التجارب النظرية والعملية واستمرار المقارنة والمراقبة ، والسهر والعرق .

لقد حاولنا أن نفيد شاكرين من جهود من تقدمونا ونفعونا بعلمهم وتجاربهم كل فى تخصصه ، فهم فى هذا المجال أصحاب السبق وأهل الفضل .

وستكون تجاربهم — مهما اختلفت ألوانها — مفيدة نافعة ، لأنها أنارت أمامنا السبيل فى ميدان ليس من اليسير أن

نعالج فيه بحوثنا بغير مزيد من التجارب النظرية عامة والعلمية خاصة .

ولعل أقصى ما يمكن أن يفيد الإنسانية من دراسة الآثار هو التمتع بما ترى في فعال الأجيال الماضية المختلفة من تشابك وتلاؤم وتصادم ، وما يمكن أن يكون لذلك من أسباب ونتائج قد يفيد منها رجل الحرب وصاحب السياسة ورجل الدين ، قد يفيد منها الإنسان عامة في الإحاطة بتطوره في المجتمع خلال عصور التاريخ المختلفة في كثير من الزمان والمكان .

على حسن

(القاهرة في ٢٥ ابريل سنة ١٩٩٢)

الفصل الأول

معنى كلمة آثار

علم الآثار Archeaology هو جزء لا يتجزأ من علم الإنسان وعلم الإنسان Anthropology ميدان يلتقى فيه كل من له اهتمام بالإنسان ، وينقسم هذا العلم إلى أربعة فروع منفصلة^(١) :

- ١ — علم الإنسان الفيزيائى الذى يدرس تطور الحياة البيولوجية والسلالات الانسانية .
- ٢ — علم الإنسان الفيزيائى وهو يرتبط بعلاقة غير مباشرة بعلم الإنسان الثقافى ويدور حول تطور البشر والحيوانات .
- ٣ — علم الآثار الذى يسعى إلى اكتشاف طبيعة ثقافات الإنسان فى العصور القديمة .
- ٤ — علم الإنسان الثقافى وهو الذى يعالج المسائل التاريخية عند

1- P. E. Newbery, in Annal of Archaeology and Anthropology, V, liverpool (1913- 1914), P 132 ff.

تتبعه مجرى التطور البشرى وانتشار البشرية على سطح الأرض ونشأة الثقافات الإنسانية .

إن نشأة وتطور علم الإنسان من بين كافة العلوم الاجتماعية والإنسانية يكاد يكون فريداً في شمولية هدفه ، إن هذا العلم جمع بين أهداف العلوم الاجتماعية وأهداف العلوم السلوكية وكذلك العلوم البيولوجية ليبرز بقالب جديد لدراسة الإنسان من جميع تلك الجوانب عبر مرآة الثقافة .

لقد ارتكز علم الإنسان في مفهومه الأكاديمي على انتهاج المذهب العلمى Social Science في مجال الدراسة والبحث والتحليل بالنسبة لكافة الأمور التي يعالجها ، ومن المعروف أن هذا المذهب ينسلخ في أساسه من الطريقة العلمية في البحث والتي يرمز لها بالطريقة الكونية أو الشمولية Universalism عكسا لما هو الحال عليه في العلوم التي تعتمد على تفسير الجزئيات كدراسة التاريخ مثلا والتي تقوم على وصف النشاط الإنساني على مر الزمن وتحليله ، والتعرف على الوقائع متسلسلة ، وتحليل الروابط بين هذه الوقائع وكشف كيف ولماذا حدثت على نحو ما .

علم الإنسان يهتم بدراسة الجماعة أو القرية أو المدينة ليس فقط لتكوين المعلومات الأساسية عن هذه الجزئيات ولكن للأهم من ذلك وهو الرقى إلى بلورة مفاهيم وقواعد ثابتة شبيهة بالقوانين في العلوم الأخرى^(١) .

1- R Redfield, The folk Society, American journal of Sociology L 11 (1947) .

نحن نعلم أن الثقافة Culture بمفهومها الواسع تتعرض لجميع النواحي التي تلمس حياة الإنسان من مادية إلى معنوية وروحية وأخلاقية وتربوية وفنية .

إن الثقافة هي مجموع ما لشعب من أفكار وتقاليد ونظم اجتماعية وسياسية ومثل عليا وفلسفة وعلوم وفنون وآداب وصناعات تهدف جميعها إلى تحقيق الخير للإنسان وزيادة رفاهية الحياة ومتعتها ، وبهذا يمكن تمييز الجماعات والشعوب المتحضرة عن الجماعات والشعوب المتأخرة وإن كان ليس هناك حد فاصل بين الشعوب المتحضرة والشعوب في بداية حضارتها (١)

إن علم الآثار كجزء من علم الإنسان يهتم أولاً وأخيراً بدراسة ثقافة الإنسان القديم من تلك الجوانب من الثقافة التي في الإمكان التوصل إلى معرفتها عبر الأزمان البعيدة وبالطبع فنسبة البعد أو القرب في الزمن الذي يدرسه علم الآثار لها تأثير مباشر على نوع واختلاف المادة الثقافية التي يتوصل إليها العلم من خلال البحث (٢)

إن وجود الإنسان ثقافياً وكذلك تاريخه الثقافي في نظر علماء الآثار يبدأ من اللحظة التي استعمل فيها الإنسان أو صنع من مادة خام ، أداة تعينه على مواجهة متطلبات الحياة الأساسية من معيشة أو إسكان أو أى نشاط بشري آخر .

1- G. Childe, Man makes himself, London, 1936.

2- H. Frankfort, The Intellectual Adventure of Ancient man, Chicago, 1949

وما يعثر عليه من مواد خلفها ذلك الإنسان الأول تكون أثرا
دالا على تجربته ومؤرخا لعصره .

إن المعرفة هي حصيلة تتراكم على مر الزمن ويساعد علم
الآثار في مدها بالمعلومات ، أما الأفكار والمفاهيم والفرضيات نجد
أن تطورها متفاوت حسب النمو والتطور في مختلف ميادين
الفكر .

تعريف علم الآثار :

ليس من السهل تعريف علم الآثار « أركيولوجيا » إن
تعريف علم الآثار بدراسة العتيق أو دراسة القديم تعطى دلالة
مبهمة غير واضحة ، فكلمة Archaeology هي كلمة يونانية
الأصل تتألف من كلمتين الأولى معناها البدء بـ Arche والثانية
معناها كلمة أو حديث Logos ، فهل المقصود هو حديث مستمد
من دراسة الماضي ، أو بداية الإنسان ؟ أم كان المقصود من هذه
الكلمة اليونانية دراسة عهود التاريخ البعيد أو التاريخ القديم
بوجه عام؟^(١)

أحد الكتاب الرومان ويدعى « دنيس داليكارنس » كتب في
عهد الإمبراطور الروماني (أغسطس) تاريخ (روما) وحروبها
مع (قرطاجنة) وأطلق على ذلك (الأركيولوجيا الرومانية) .

في القرون الأولى من تاريخنا ظهرت كلمة (أركيولوج)
بمعنى خاص تماما فهي تدل في البلدان التي تتكلم اليونانية على

1- I Hawkes, Atlas of Ancient Archaeology, London, 1974

نوع من الممثلين مثل ممثلى الدراما الذين يمثلون الأساطير القديمة على المسرح والعبارة بهذا المعنى العجيب (اختفت تماما الآن) .

وإننا نعجب من أن اللغة اللاتينية لم تذكر كلمة (أركيولوج) عالم آثار ولا (أركيولوجيا) علم الآثار ، كذلك فعلت اللغة العربية فلم تظهر فيها هذه الكلمة حتى إن كلمة (تاريخ) لم تذكر في القرآن الكريم ولم يذكرها العرب في الجاهلية وهذه الكلمة ظهرت لأول مرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وربما أخذت من اليونانية حيث إن كلمة تاريخ وكلمة (أرخ) كانت غير مستعملة عند العرب حتى عصر ابن الخطاب رضى الله عنه .

لم تظهر هذه الكلمة أيضا في الأحاديث النبوية الشريفة ويعتقد أنها مستمدة من الكلمة السامية التى تعنى « القمر » أو الشهر وهى فى الأكادية « أرخو » وفى العبرية « يرخ » وربما كانت تعنى « التوقيت حسب القمر » .

لقد بعثت كلمة آثار فى القرن السابع عشر بواسطة الفرنسى (جان سبون) من مدينة ليون والذى كان يخلط بين كلمة (أركيولوجيا) و(أركيو جرافيا) ولكن الذى عاش واستمر فى كل اللغات هو كلمة (أركيولوجيا) .

إن أى عمل بشرى يعثر عليه يدخل تحت مظلة علم ما قبل التاريخ وعلم الآثار ، والبعض يقول إن علم الآثار يبدأ من العصور الحجرية الأولى حتى القرن الثامن عشر ، والسؤال

الآن : هل هناك علم آثار واحد أم هناك علوم آثار خاصة لكل منها متطلباته ومشاكله ؟ .

والجواب على ذلك أن هناك علوم آثار لم تنشأ في آن واحد وكل منها يهتم بأنواع من الأشياء مختلفة ، فمثلا علم آثار ما قبل التاريخ يدرس قطعة صغيرة من الفخار وبعض الأدوات المصنوعة من الطران أو بعض الزخارف البدائية في حين أن علم الآثار الإغريقية يدرس آثارا فنية وزخرفية لا مثيل لها وليس لها لها نفس الأسلوب أو المظاهر أو حتى الموطن الواحد^(١) .

إن أهمية ما يعثر عليه من آثار هي أنها تلقى ضوءا على تاريخ رجال مثلنا تماما وعلى حضارة متصلة بنا وبحضارتنا الحالية .

إن الكشف عن العالم القديم يؤثر فينا جميعا ويصبح جزءا من الميراث الثقافي العام ونحن ننصف إذا قلنا عن علم الآثار بأنه العلم الذي يهم كل إنسان ومرجع ذلك إلى أن هدفه المباشر خاصة إذا ما قارناه بالعلوم الطبيعية هو أنه يأتي بمقدمات أبسط ، فهو يبحث في كل ما خلفه الإنسان منذ أن خلق على هذه الأرض .

إن النظر نحو الماضي والرغبة في معرفة الحضارات القديمة والاهتمام بأشياء وأعمال فنية من العصور القديمة ، كل هذا

1- E Baumgartel, The Culture of Prehistoric Egypt, 2 vols. I (1955); II (London 1960); P. Singh, Neolithic Culture of Western Asia, London 1974

كان ومازال موضع اهتمام الإنسان عامة ورجال الآثار خاصة^(١) .

إن علم الآثار كما سبق أن ذكرنا في جوهره قصة الإنسان كما تظهرها الأشياء التي تخلفت عنه وهو بالدرجة الأولى البحث عن المعرفة وليس مجرد البحث عن الأشياء^(٢) .

لقد قال أحد الباحثين إن وظيفة علم الآثار هي معرفة الماضي من الأشياء المادية بدلا من الكلمات ، وهذا تبسيط يدعو إلى السخرية بالنسبة لحضارة مثل حضارة مصر وحضارة بلاد ما بين النهرين حيث تم العثور في هذين البلدين على كمية هائلة من الأشياء المادية عن الذين كتبوا هذه الوثائق ، وأن الفائدة التي قدمتها هذه الوثائق لم تقتصر فقط على كشف تاريخ الأحداث بل وأبرزت شرحا مفصلا للحضارة القديمة^(٣) .

ولقد أسهمت النصوص المدونة كثيرا في استكمال الصور المعروفة للتنظيم الاجتماعي والاقتصادي والتقدم الفكري في عصور الكتابة .

إن البقايا الأثرية للبيئة التي كتبت تحت تأثيرها الوثائق نفسها قد أكملت إظهار التطور البشرى وتكييفه لتأثيرات البيئة ، وباختصار فإن الكتابات القديمة من ناحية ودراسة

1- W. Petrie, Seventy years in Archaeology, London 1931

2- Frankfort, op. cit.,

3- L. Mallowan, Twenty five years of Mesopotamian Discovery, London, 1956, W F Albright, In Bulletin of the American Schools of oriental Research, 1948.

البقايا المادية من ناحية أخرى هما مصدران متساويان تقريبا للحصول على المعلومات الخاصة بحضارة من الحضارات^(١) .

ويجب ألا يغيب عن بالنا أن العصور التاريخية التي نؤرخ لها وتبدأ بالكتابة قد سبقتها فترة طويلة لم تكن خلالها الكتابة معروفة ، وهي فترة تكوينية في التقدم البشرى نمت معرفتنا لها من نتائج علم الآثار المستند على الحفر والتنقيب فقط .

إذن نستطيع أن نقول إننا نملك وسيلتين لمعرفة الماضي هما علم الآثار وعلم اللغات ، الأول : يهتم بالأشياء والأشكال المادية والثاني : يهتم بالنصوص «الفيلولوجيا» .

والاثنتان لا غنى عنهما لعالم الآثار ، فالنصوص تقدم الكثير من المعلومات لشرح الآثار من مقابر ومعابد وتوابيت وتمائيل وأوانٍ فخارية وحجرية ، بل والحياة القديمة عموما من قوانين وعقود ونظم اجتماعية وسياسية ، إن علم اللغات هام جدا بالنسبة لعالم الآثار وكذلك عالم اللغات لا يستطيع تفسير أو شرح نصوصه إلا بمساعدة الأشياء الأثرية التي يعثر عليها من معابد ومقابر وتمائيل وجميع مخلفات الحياة اليومية^(٢) .

كان علم الآثار وصفا قبل أن يصبح علما وبهذا المعنى يمكن القول بأن (هوميروس) هو أب علم الآثار لأن بعض الأوصاف الموجودة في الإلياذة والأوديسة تنقل إلى المستمع

1- H. Kees, Das Alte Agypten, Berlin 1941.

2- J. H. Breasted, Ancient Records, 1- IV, Chicago, 1906; W. Helck und E. Otto, Kleines Wörterbuch der Agyptologie, Wiesbaden 1956; D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, Chicago, 1926- 1927.

حضارة قديمة سبقت العصر الذي سجلت فيه هاتان الملحمتان حيث نجد أن بعض أجزاء من تاريخ الإغريق القديم مسجل منذ عصوره الأولى حيث الإشارة إلى بعض المباني الهندسية القديمة ووصف لما يوضع مع المتوفى من ملابس وأثاث وأدوات جنائزية .
وابتداء من القرن الرابع قبل الميلاد تضاعفت الكتابات الأركيولوجية وخاصة في عصر الفيلسوف (أرسطو) .

وحب الإنسان للماضى ليس بالشىء الحديث ، فقد احتفظ المصريون القدماء بسجلات تتحدث عن الكثير من علومهم ودياناتهم وكذلك فعل البابليون الذين خلفوا وراءهم أكبر مكتبة تضم آلافاً من الكتب ، وخلال منتصف القرن الخامس الميلادى سافر هيرودوت آلاف الأميال يبحث في تاريخ الشعوب ويصف آثارها وتقاليدها وعاداتها ، فعل ذلك أيضا بليني و « ديدور الصقلى » و « استرابو » وغيرهم .

ويقال إن « هادريان » كان مهتما بالآثار القديمة ، وقام بتجديد وتزيين المراكز الكبرى في الحياة الإغريقية ، فبنى في قصره مدرسة وأكاديمية ورواقا لحفظ الرسوم ، ومسرحا إغريقيا ، وملعبا على غرار الابنية التى زارها وأحبها ، كذلك يعتبر أول من أنشأ أول متحف للهندسة المعمارية في التاريخ وكذلك متحفا للنحت ورواقا لحفظ الرسوم .

وابتداء من القرن الرابع الميلادى تضاعفت الكتابة عن علم الآثار وكذلك بدأ السياح يكتبون عما يشاهدونه بل ويجمعون بعض القطع الأثرية المتنوعة ويحفظونها في غرف خاصة .

عصر النهضة وعلم الآثار :

إن وجود عصر النهضة في الغرب كله ونمو النزعة الإنسانية والإعجاب الشديد بالعصور القديمة ، كل هذا كان ملائماً تماماً لنشأة علم الآثار ، لقد بدأ الإنسان البحث عن الماضي وبدأ حب الآثار القديمة يسيطر عليه وبدأ يكتشف ما يطلق عليه الفن اليوناني والفن الروماني ، وبدأ يستخرج التماثيل القديمة من باطن الأرض ويضعها في المتاحف .

أهم الأسماء في علم الآثار (١) :

١ — نيقولا — كلودي دي بيرسك (١٥٨٠ — ١٦٣٧) كان له اهتمام بالعلوم الطبيعية وعلم الآثار — أحد الأوائل في فرنسا الذين وجهوا اهتمامهم إلى مصر والحبشة وإفريقيا .

٢ — جان سبون (١٦٤٧ — ١٦٨٥) كان طبيبياً وجامع آثار ، ألف كتاباً اسمه « مزيج من علوم الآثار » .

٣ — بول لوкас (١٦٦٤ — ١٧٣٧) جامع آثار منذ عهد لويس الرابع عشر، زار اليونان وآسيا الصغرى وسوريا ومصر وجمع كثيراً من الآثار أهمها العملات والمخطوطات الأثرية .

٤ — جمعية « ديليتاني » Dilettani المؤسسة في لندن عام

1- R. Dawson, Who Was Who in Egyptology, London 1951; j. Wilson, Sings and wonders Upon Pharaoh. A history of American Egtology, Chicago 1964

١٧٣٣ لعبت دورا رئيسيا في هذا التقدم لعلم الآثار الكلاسيكى المتعلق بالشرق الأوسط في انجلترا .

القرنان السابع عشر والثامن عشر :

هما في الحقيقة البداية الحقيقية لدراسة علم الآثار . خلال القرن السابع عشر زار الرحالة مصر والشرق الأوسط وقاموا بدراسة الأهرامات وكتب الأستاذ Greaves إلى الملك شارل الأول كتابا عن رحلته في مصر وخاصة الأهرامات . كذلك كتب آخرون في نفس العصر عن رحلتهم إلى بلاد بابل ونيوى وسوف نذكر ذلك بشيء من التفصيل في الصفحات التالية ، ولقد بدأ أيضا بعض الباحثين يدرسون ما كتبه المؤرخون القدماء أمثال هيروdot وبيلىنى وغيرهم ولكن علم الآثار حتى ذلك الحين كان مقيدا بسلاسل لتأثره بما جاء في التوراة .

أواخر القرن الثامن عشر :

بدأ علم الآثار يتحرر من قيوده ، وفي أوائل القرن التاسع عشر بدأ علم الآثار الحديث يأخذ شكلا آخر وأحدث انقلابا خطيرا في معرفة الإنسان بتاريخه وتطوره في اكتشاف حضارات ومدن قديمة سبقت حضارة اليونان والرومان بعشرات القرون وغيرت آراء مؤرخى الحضارات عن أصول التمددين البشرى وجذوره فقد كان الباحثون يحصرونها تقريبا في تراث الحضارة اليونانية .

إن الكثير من تلك الحضارات القديمة لم يعرف عنها شيء ، حتى مجرد أسمائها لم تكن معروفة ، ولكن الكشف عن مخلفاتها

وسع نظرة الإنسان الحديث إلى الحياة وتطورها وأصول تطور البشرية الحضارى والمراحل المختلفة التى مر بها ذلك التطور .

علم الآثار ساهم مساهمة فعالة فى إحياء تواريخ أمم مجهولة وحضارات قديمة وتجارب إنسانية كبيرة مثل حضارات مصر والعراق والصين والهند وبعض جزر البحر المتوسط وحضارات أمريكا اللاتينية ، وغيرهم من الأمم التى تركت وراءها مخلفات أثرية^(١) .

وهذه الفترة رغم أنها البداية الحقيقية لعلم الآثار الحديث لكنها فى الواقع هى أسوأ فترة بالنسبة لبلاد الشرق القديم لأنها الفترة التى نهبت فيها آثار وكنوز مصر والعراق دون تصريح ، وأصبحت هذه البلاد هدفا لهواة جمع الآثار سواء للمتاحف أو المجموعات الخاصة ، ولقد دمر من الآثار أثناء عمليات النهب والسرقة خلال هذه الحقبة أكثر مما عثر عليه .

ورغم هذا لم يعد علم الآثار هو مجرد البحث عن الكنوز وهواية جمع الآثار ، فقد بدأت الحفائر العلمية تأخذ طريقها ، ولم يكن الهدف منها العثور على قطع أثرية فحسب بل إيجاد طريق يوثق بها للتأريخ النسبى حتى للمبانى والمنقولات الأثرية التى صنعت قبل اختراع الكتابة بوقت طويل .

وبالتدريج أمكن تجميع تاريخ جهود الإنسان المتعاقبة فى الحضارة ، وتمكن علم الآثار من تتبع حركات الشعوب

1- A. Scharff, and Moartgoat, Agypten and Vorderasian in Altertum, Munich 1950.

وأخبارهم وحروبهم وانتصاراتهم ومعتقداتهم الدينية وعاداتهم الاجتماعية ، ولما قرأت كتاباتهم القديمة أمكن معرفة شئ عن أفكارهم أيضا ، وهذه هى العلاقة الوثيقة بين علم الآثار والتاريخ^(١)

إن أى علم من العلوم لا يصل إلى درجة النضوج إلا وعرفت حدوده وعلم الآثار أصبحت الآن حدوده معروفة إلى حد كبير ، إذ أن المعلومات التى تصل إلينا عن طريق ما يعثر عليه من آثار يكملها ويساعد على توضيحها النصوص أو بمعنى آخر علم اللغات ، فمثلا الفن المصرى القديم والأدب المصرى القديم يؤلفان عالَمين مستقلين .

إن علم الآثار لا يستطيع أن يصل إلا إلى قسم من الأشياء التى تؤلف حضارة شعب ما ، وهذا القسم هو الأكثر أهمية وهو الذى يستحق البقاء .

إن عالم الآثار يهتم بجمع كل ما يتعلق بمظاهر الحياة وليست قيمة الشئ الفنية هى التى تهتم وحدها ، إن هناك كثيرا من المواد لها صفة الصلابة والخلود فى بعض الأحيان مثل الجرانيت المصرى والديوريت والرخام الإغريقى والبرونز الإيرانى والصينى ومع هذا لا تقترن هذه المواد دائما بالجمال .

لماذا ظل علم الآثار وقتا طويلا حتى نشأ بينما نجد أن علم اللغات قد سبقه بفترة طويلة منذ العهد الهيلينى ؟ يجب

1- A. Toynbee, A study of History, Oxford 1947.

انظر ص ٨١ علم الآثار والتاريخ .

الأُنسى دور الكنيسة التي كانت حجر عثرة ضد علم الآثار وخاصة في المدة ما بين عام ١٧٩٣ - ١٨٨٠ والتي استمرت إلى أن هزمت الكنيسة ولكن بعد حوالى ٩٠ سنة من الصراع واعترف القساوسة أن الآثار المصرية بالذات قد قدمت لهم الكثير من البراهين العلمية الهامة ، لقد كانت الكنيسة في ذلك الوقت تحافظ على التقاليد والعادات والدراسات القديمة وتهتم بالأدب وليس بالفنون ، وكذلك نجد أن الاهتمام كان بالكلام والأفكار ، وليس بالأشكال الفنية ولذلك نجد أن علم اللغة تقدم على علم الآثار ، وأن دراسة النصوص هي أسهل بكثير من دراسة المواد الأثرية ، ولكن كان لسهولة الرحلات والتصوير أهم الأسباب في تقدم علم الآثار .

إن علم الآثار ليس تحقيقاً عن الماضى غير محدد ، إنه تحقيق عن مختلف الحضارات ، وعلينا أن نفهم بشكل أفضل العوامل المشتركة التي يتقرر بواسطتها الربط بين تنقيبات ذات ميادين مبعثرة زمنيا وجغرافيا .

الفصل الثانى

العلوم المساعدة لعلم الآثار

لقد سبق أن قلنا إن هناك علوم آثار بقدر عدد الحضارات ،
وفهم علم الآثار يتعلق بفهم الحضارة ، فما هو الأول تاريخيا ،
بين العلوم التى تهتم بها الآن ، العلم الأم لجميع العلوم
الأخرى ؟ أنه علم الآثار الكلاسيكى .

لقد ولد هذا العلم من الرغبة فى فهم – بشكل أفضل –
ما اعتبره رجال النهضة والأزمة الحديثة ، وكذلك الإغريق
والرومان كحضارة بشرية جيدة . وامتد الاهتمام شيئا فشيئا
إلى أشكال أخرى من الثقافة وولدت علوم آثار أخرى ، ولقد
اشتد اهتمام الباحثين بحضارة اليونان والرومان من ناحية ومن
ناحية أخرى بالمسيحية وآثارها .

ثم بعد ذلك اتجهت الأنظار إلى مصر والشرق الأدنى القديم
لكى يتعرفوا على حضارتها وكذلك تاريخ المسيحية والإسلام ،

إن زاوية العالم الممتدة من اتينا إلى القدس هي مهد الحياة الفكرية والروحية في الغرب .

لقد امتد البحث الأثرى إلى جميع أنواع الميادين وجميع أنواع العصور وأصبحت الكرة الأرضية مشغلا فسيحا وطد علم الآثار حقوقه عليها كلها .

إن الكثافة الأركيولوجية ليست هي نفسها في كل مكان إنها تتوقف على الأماكن والشعوب ، وهذه كلها لم تشارك مشاركة متساوية في تطور البشرية .

أهم الجهود الأثرية في بلاد الشرق القديم :

سنحاول في هذه العجالة أن نتعرض لبعض النشاطات الأثرية التي تمت في بعض بلاد الشرق القديم والجهود التي بذلت للكشف عن حضارة وآثار هذه المنطقة التي تعد أغنى مناطق العالم بآثارها سواء المشيدة فوق سطح الأرض أو المدفونة في باطن الأرض .

مصر (١) :

إن أقدم حضارات الدنيا حتى الآن هي حضارتا مصر والعراق وفي هذين البلدين ظهرت أكبر كمية من الآثار التي تملأ أغلب متاحف العالم حتى إن علم الآثار ازدهر وانتشر وأصبح

1- G. Bratton, A History of Egyptian Archaeology, London 1964.

علما بسبب النشاط الأثري الذي تم على أرض مصر والعراق^(١) .

وهناك حادثتان مهمتان في تاريخ علم الآثار :

الأولى :

حضور نابليون إلى مصر ومعه ذلك العدد الهائل من العلماء والذين كتبوا ذلك الكتاب الضخم كتاب « وصف مصر » عام ١٨٠٩ والذي ذكر فيه آثار مصر الفرعونية والقبطية والإسلامية بالرسم والكتابة .

الثانية :

ما قام به اللورد « الجن » من فك قسم من آثار البارثون ونقلها إلى المتحف البريطاني حيث عرضت عام ١٨١٦ م .
هذان الحادثان يمكن القول إنهما يسجلان الولادة الفعلية لعلم الآثار في عصرنا الحالي .

لقد تأسست في اليونان (أثينا) عام ١٨٤٦ المدرسة الفرنسية لعلم الآثار ، واتساع أبحاث علم الآثار قد تتابع في الوقت نفسه على إيقاع متسارع منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ونحن نعلم أن ولادة علم الآثار المصرية القديمة يعود إلى ١٤ يوليو عام ١٨٢٢ يوم استطاع العالم الفرنسي فرانسوا

1 . E. Ellis, A Bibliography of Mesopotamian Archaeological Sites, Wiesbaden, 1972.

شمبليون فك رموز اللغة المصرية القديمة عن طريق ترجمة حجر رشيد والذي عثر عليه في جدار قلعة بمنطقة رشيد عام ١٧٩٩ ، ومنذ ذلك التاريخ وحى علم الآثار المصرية بدأت تنتشر في جميع أنحاء العالم^(١) .

لقد تأسست معاهد كبرى لدراسة الآثار المصرية في لندن وباريس وبرلين وتورين ولايدن في هولندا وبروكسل وفي شيكاغو وأمريكا^(٢) .

ومن أهم الأعمال في ذلك الوقت هو ما قام به الألماني لبسيوس ١٨٤٣ - ١٨٤٥ بزيارة مصر وبلاد النوبة على رأس بعثة كان نتائجها ١٢ مجلدا من الآثار المصرية ، كذلك اكتشف الفرنسي « مارييت » صاحب فكرة إنشاء المتحف المصرى بالقاهرة عام ١٨٥٠ مقابر العجل المقدس أبيس داخل مقابره والتي نطلق عليها (السرابيوم) في جبانة منف بمنطقة سقارة^(٣) .

على أن أهم الاكتشافات الأثرية خلال هذا القرن هو ما تم عام ١٩٢٢ بواسطة عالم الآثار « كارتر » وكشف مقبرة (توت - عنخ - آمون) وهى المقبرة الوحيدة التى عثر عليها سليمة لم تصل إليها أيدي اللصوص في وادى الملوك بالبر الغربى بالأقصر وهو ذلك الاكتشاف الذى هز العالم فى وقته .

1- Dowson ap. cit , P 20 FF

2- R. Lepsius, Denkmaler aus Agypten and Athiopien Text, Leipzig 1897.

3- Ellis, op. cit, P. ff; A Beek, Atlas of Mesopotamain, London, 1962, L. Mallowan, Twenty- Five years of Mesopotamain Discovery, London, 1956.

النشاط الأثرى في بلاد ما بين النهرين

لم يهتم الغرب بآثار وحضارة بلاد ما بين النهرين القديمة بصفة عامة إلا في القرن السابع عشر على أثر عودة النيل الإيطالي — بيترو — ديلا — فال (١٦٢٥) Pietro Della Valle حيث كان في رحلة إلى بلاد العراق القديم وأحضر منها أحجارا منقوشة برموز غير معروفة .

كذلك نجد أن ملك الدانمارك أرسل بعثة علمية إلى الشرق لجمع كل ما يمكن من معلومات عن الشرق في كافة فروع المعرفة ، وقد تمكن رئيسها « كارستن — نيبور » من نسخ نقوش من (برسبوليس) أثارت اهتمام علماء اللغات فبدلوا جهودهم في محاولة تفسيرها ، ومنذ ذلك الحين أخذ كل من ذهب إلى الشرق يحاول البحث والتنقيب في أطلاله وتجميع ما يمكن الحصول عليه من آثاره ونسخ كل ما يمكن أن ينسخه من النقوش من على سطوح الآثار الثابتة التي يراها .

وأهم هؤلاء العلماء .

١٧٨٦ القس الفرنسي « جوزيف دي — بوشام Joseph de Beaichamp » .

١٨٠٧ القنصل البريطاني في بغداد « جيمس ريتش James Rich » .

١٨٣٥ السير هنري كربزوك رولنسون Sir Henry Cres- mick Rawlinson .

١٨٤٣ القنصل الفرنسى فى الموصل « بول - اميل - بوتنا
« Paul Emile Batta .

١٨٤٣ سيرهنرى لايارد Sir Henry Layard .

ومنذ مطلع القرن الحالى قامت بعثات اجنبية كثيرة من
مختلف الجنسيات تنقب فى ارض العراق أشهرها بعثة
سيرليونارد وولى مكتشف مقابر اور الشهيرة^(١) .

إيران :

بدأ التعرف على آثار ونقوش إيران منذ القرن الخامس عشر
حيث زارها بعض المبشرين والرحالة .

على أن أهم ما عثر عليه فى إيران هو نصوص تشبه ذلك
النص الذى عثر عليه منقوشاً على حجر رشيد فى مصر أى نص
كتب بثلاث لغات مختلفة ويرجع إلى عصر دارا الاول ، النص
كُتب بالفارسية القديمة والعيلامية المتأخرة والبابلية ، عثر على
هذا النص على صخرة (بهستون) بالقرب من كرمنشاه ، كذلك
عثر على نقوش أخرى فى « برسبوليس » « اصطخر » إلى
الشمال الشرقى من شيراز ، ولقد استطاع « جورج -
جروتفند » عام ١٨٠٢ قراءة أسماء ثلاثة ملوك من نقشين عثر
عليهما فى (برسبوليس) وقام « جروتفند » بإلقاء الضوء على
اللغة العيلامية^(٢) .

1- L. Woolly, Ur Excavation Vol. I, II, The Royal cemetery, London 1943

2- R. Chirshman, Iran (pelican) 1945 Fouilles a Saik, T. I (Cairo 1938) T. II (Cairo 1939).

على أن أهم ما تم العثور عليه هو ما عثر عليه عام ١٨٣٥ حيث كشف « رولنسون » عن نقش طويل باللغة المسمارية في بهستون وقد استطاع أن ينشر هذا النص مترجماً سنة ١٨٤٦ وبهذا أصبح في الإمكان قراءة النص الفارسي القديم مما جعل التوصل إلى حل رموز النص العيلامي والبابلي سهلاً وعليه كانت هذه هي بداية معرفتنا بقراءة النصوص المسمارية ، وهذه هي ثمرة من ثمرات علم الآثار .

جنوب بلاد العرب^(١) :

بدأ الاهتمام بجنوب بلاد العرب منذ أواسط القرن الثامن عشر وبدأت المحاولات الأولى بمعرفة عالم دانماركي يدعى « مخايلس » الذي كونه بعثة للبحث في آثار شواطئ اليمن وحضرموت وكان مع هذا الرحالة « كارستن نيبور » والذي أصدر كتاباً بنتائج رحلته .

وفي عام ١٨١٠ تمكن العالم الألماني « سيتزن » من العثور على نقوش (ظفار) جنوبي صنعاء ، علاوة على أبحاث « جروتفند » الألماني والتي تتعلق بنقوش سبأ .

كذلك عام ١٨٤٣ كان هناك نشاط ملحوظ في بلاد اليمن في صحراء (الأحقاف) وحضرموت .

وفي عام ١٨٤٣ استطاع « توماس أرنو » الفرنسي من كشف سد مأرب من عصر (سبأ) ومعبد إله القمر والذي يطلق

1- Philip Hitti, History of the Arabs (3. nd ed 1946)

عليه اسم « محرم بلقيس » كذلك كان هناك اهتمام بواسطة أكاديمية الفنون الجميلة بباريس في نسخ كثير من النقوش والكشف عن آثار الدولة المعينية .

وفي العصر الحديث هناك أبحاث أثرية تمت عام ١٩٢٨ شمال صنعاء وفي عام ١٩٣٦ قامت بعثة أثرية برئاسة الدكتور سليمان حزين بالعمل قرب صنعاء ، كذلك قام الدكتور أحمد فخرى في الخمسينيات. بإجراء أبحاث أثرية في أماكن مختلفة من اليمن^(١) .

شمال بلاد العرب :

اهتم كثير من العلماء المستشرقين بآثار البتراء وجنوب سوريا ومن أهم العلماء الذين قاموا بهذه الأبحاث « لسوفيج بوخارت » السويسرى ، وفي عام ١٨٤٥ قام كل من « ديتشارد بريثون » و « جوزالين » بزيارة بلاد نجد والكتابة عن ماشاهدوه^(٢) .

كذلك قامت بعثات أخرى بزيارة بلاد الحجاز وعثرت على كثير من النقوش العربية وخاصة في المنطقة الشمالية والغربية والوسطى من بلاد العرب وذلك في المدة ما بين عام ١٨٧٦ — ١٨٨٤ م .

علاوة على حضارات الشرق القديم والنشاط الأثرى الذى

1- S Huzayyis, Nature, Vol. XI (1937), P. 513 ff; Ahmed Fakhry An Archaeological journey to Yamin, Cairo 1952

2- M. Dunand, in Syria, IX (1928) P. 173; H. Nebor, in Berytue I, (1934), P. 19.

تم في هذه البلاد، توجد بعض البلاد التي لها تاريخ وحصارات
وما زالت تحتاج إلى كثير من الجهود الأثرية نذكر منها :

الهند :

دلت الاكتشافات عن العثور على مدينة كبيرة في « هارابا
و « موهنجودارو » والتي ترجع الى ٢٠٠٠ ق . م ، وبهذه المدن
ما يدل على النهب والسلب الذي أصابها ، والأساطير الهندوسية
القديمة تشير بوضوح إلى الغزو الأصلي الذي قام به الفاتحون
الآريون لوادي السند .

الصين :

لقد كشف بالقرب من بكين بقايا عظام الإنسان الأول وهو
ما نطلق عليه إنسان الصين وفي منطقة « أنياج » كشف علماء
الآثار عن أدلة تثبت وجود حضارة متقدمة لا تنشأ إلا على
ضفاف الأنهار وكذلك نوع من الكتابة ، هذه الحضارة ترجع إلى
٢٠٠٠ ق . م وهي معاصرة لحضارة الدولة الوسطى المصرية ،
وهناك نشاط أثرى واسع النطاق الآن بالصين .

أمريكا الشمالية والجنوبية :

وجدت بقايا إنسان من العصر الحجري القديم من
الصيادين وصانعي الأسلحة والأدوات المنزلية . كذلك عثر في
كل من المكسيك وبيرو على آثار هامة وخاصة ما قام به الأثرى
« الفونسو — كاسو » وقد استطاع الكشف عن حضارة المايا
والأستييكس^(١)

1- Coe, Michael, The maya, London 1966

إفريقيًا :

لا تزال حتى الآن بكراً بالنسبة لعالم الآثار ولقد وجدت بقايا الإنسان وهي بالغة القدم لدرجة يفترض معها بأنه ربما كانت إفريقيا هي مهد الإنسان الأول للجنس البشرى^(١) .

على أنه توجد حقيقة واحدة مؤكدة أن علم الآثار بكشفه للصور العامة للتطور الإنساني إنما تبين لنا أن الإنسان أصبح إنسانا بفعله وتدريبه ، وعندما يتوقف عن التعجب والتأمل فانه سيذبل ويضمحل ، ولا تزال فينا روح الإنسان الذي رأى النار لأول مرة ، وفكر في كيفية إحداثها والتحكم فيها .

أهم العلوم التي تساعد البحث الأثرى :

إذا كانت التوصية بالتعاون بين العلوم أمرا سهلا ، فإن تحقيقها أمر عسير في بعض الأحيان ، ومن المؤكد أن كل من حاول وجد الكثير من الصعوبات وقد يتمخض ذلك التعاون عن عقم مشترك مثلما يتمخض عن ثمار مشتركة ، فكلا الأمرين ممكن ، وليس مما يخفف الصعوبات أن يقال — كما يقال عادة — إن ثمة موانع وحواجز دون التعاون يفرضها وجود المصطلحات الفنية والتعبيرات الخاصة في كل ميدان . تلك حوائل موجودة ولكن التغلب عليها يقتضى فهم أسباب وجودها . ولو كان الأمر مقصورا على أن يقوم مختص في أحد العلوم فيكتسب معرفة عملية بالمصطلحات التي يستخدمها زميل

١ — الحضارات الإفريقية — ترجمة نسيم نصر — بيروت ١٩٧٨ .

مختص بعلم آخر لكانت بضعة أسابيع من التطبيق الجدى وافية بالغرض لكن الموقف لسوء الحظ أشد تعقيدا من هذا بكثير . ذلك أن الحواجز بين العلوم لم تنشأ بسبب الإغفال والتغاضى ولا كانت نتيجة فرعية لطبيعة الإدارة الجامعية ، بل يبدو أنها سهلت على أصحابها علوماً معينة لتأدية بعض الوظائف النافعة كوضع مقاييس للعمل والمحافظة عليها .

ونحن نعلم هذه الوظائف ونقرها ولكننا نرى أن هناك نتائج فرعية أخرى تبدو أكثر اتصالا بأمور الكرامة والسلطة ولكنها قلما توضع فى صورة صريحة وعلنية .

إن علم الآثار من العلوم التى تحتاج إلى كثير من العلوم المساعدة التى تقدم معونات فنية لعالم الآثار وتساعده على أن يصل إلى ما يصبو إليه من الحفاظ وشرح وعرض الآثار التى يعثر عليها وهى كثيرة ومتعددة نذكر منها :

- ١ — علم النقوش Epigraphic وعلم أوراق البردى Papyralogie يلعبان دورا هاما بالنسبة لعلم الآثار .
- ٢ — علم الانثروبولوجيا Anthropologie وهو علم ذو مظاهر متنوعة جدا ، منها درس الأعراق البشرية من الوجهة الطبيعية بمساعدة الهياكل العظمية البشرية والحيوانية ، والتى تكتشف بواسطة عالم الآثار .

٣ — الجيولوجيا والجغرافيا :

تحديدان الوسط الطبيعى الذى نما فيه الإنسان ونشاط الأجيال البشرية ، ونحن نعلم أن بعض الحيوانات ظلت مشابهة

لذاتها خلال أربعة آلاف سنة ، ودراسة الحيوانات والنباتات المتحجرة هي من الأشياء الهامة والمساعدة التي لا غنى عنها لدارس عصر ما قبل التاريخ .

٤ — الاثنوجرافيا :

وهو علم خصوصيات الشعوب ومشارك اشتراكا وثيقا مع علم الآثار ، إن هذا العلم مختص بدراسة الأعراق والحضارات والمجتمعات ، علم يهتم بدراسة الأخلاق والعادات والأديان المعاصرة والتي هي صالحة لإعطاء معلومات حول آثار الماضي .

٥ — الطبوغرافيا :

علم يتعلق بوضعية وتوزيع أسماء السكان ودراسة هذه الأسماء من الناحية اللغوية والتاريخية^(١) .

٦ — الهندسة المعمارية :

وهي الدراسة التي تهتم بدراسة فن البناء سواء كان دينيا أو مدنيا أو حربيا كذلك هندسة المدن Urbanism ومن شأن هذا الفرع من الهندسة المعمارية ليس فقط رسم مخططات المدن بل هو يهتم بجميع المشاكل الناشئة عن حياة الاحتشاد في الأماكن سواء كان صغيرا أم كبيرا .

٧ — فن النحت :

وهو فن إعادة التكوين في مادة صلبة (حجر — برونز — عاج) بشكل منخفض أو مرتفع أو بزخرفته بزخارف بارزة أو غائبة .

1- W. Wolf, Funde in Agypten Geschichte, Ihrer Entdeckung Gottingen 1966.

٨ — الفن التشكيلي :

يتألف في الأصل من مادة رخوة (شمع — فخار) ويطلق عليه أحيانا « بلاستيك » وهذه هي أولى مراحل فن النحت — على أن كلمة (بلاستيك) تفهم بمعنى النحت في أغلب الأحيان .

٩ — فن الحفر على الأحجار الكريمة :

وهو فن حفر الحجارة الدقيقة إما بالتجويف أو بالحفر البارز . Glyptique .

١٠ — دراسة الأختام :

مادتها وطرزها ويطلق عليها Sigillographic أى فن الأختام .

١١ — علم النقود :

وهو علم المسكوكات القديمة Numismatiquis

١٢ — السيراميك :

أى فن الخزف وصناعة المواد الخزفية من الطين المحروق وكذلك الخزف المطلق والبورسلين .

١٣ — علم قراءة الكتابات القديمة : Poleographic

يتألف من حل رموز الكتابات وخاصة المكتوبة على الجلود والصكوك وشهادات القرون الوسطى .

١٤ — علم المترولوجيا : Metrologic

هو علم الأوزان والمقاييس .

١٥ — فن نحت المعادن : Torentique

وهو فن نحت وحفر المعادن من فضة وذهب وبرونز وحديد وخلافه .

١٦ — علم البردى : Papyralogic

ويدرس النصوص والكتابات المسجلة على أوراق البردى .

١٧ — فن الرسم :

لابد لرجل الآثار أن يكون على دراية بفن الرسم حيث إن هذا يساعده أثناء أعمال الحفر والتنقيب .

وسنوضح هنا أحد الأمثلة التي توضح العلاقة بين العلم

والآثار : —

لقد عاش الإنسان الأول متجولا من مكان إلى مكان يجمع طعامه من لحوم الصيد وأجزاء النباتات المختلفة ، وكان يرتحل من مكان إلى آخر أينما يتوفر له الصيد وتكثر النباتات التي كان يتغذى عليها ، وظل على هذا الحال آلاف السنين لم يكن له مستقر دائم يبدأ فيه وضع أسس الحضارة ، إلى أن اكتشف الزراعة واستأنس الحيوان ليضمن قوته بصفة دائمة من لحوم وبقول وخضراوات وفاكهة ، وكان لهذا الكشف أكبر الأثر على تطور الحضارة في العالم ، بل لعله أكبر كشف للإنسان عبر العصور ولعله أكثر أهمية للتقدم البشرى من كشف أسرار الذرة واستخدامها في ميادين العلم المختلفة^(١) .

١ — محمد أبو المحاسن عصفور — تاريخ الشرق الأدنى — بيروت — ١٩٨١ .

وبدأ العالم يفكر في هذا الكشف الخطير وكان من الصعب بالطرق العادية تحديد نوع مجتمع قديم ، هل كان مجتمعا زراعيا مستقرا يزرع ويحصد أم كان مجتمعا قبلياً زراعياً لقوم رحل أقاموا في ذلك المكان فترة قصيرة ثم رحلوا عنه ، هنا تدخل العلم بأساليبه البارعة وأمكن من خلال الفحص الكلي لبقايا الحيوانات والنباتات الرد على هذا الاستفسار ، فقد دل فحص علماء النبات لأنواع الحبوب التي وجدت في منطقة الهلال الخصيب بين نهري دجلة والفرات في قرية « جارمو » أنها ليست من البذور التي وهبتها الطبيعة القدرة على بذر نفسها على نطاق واسع بل من الأنواع التي يزرعها الإنسان ويحصدها ، أي النباتات المستأنسة ، كما قام علماء الحيوان بدراسة قرون الماعز في نفس المكان ، ووجدوا أن بها تغيرات واضحة تدل على أنها كانت حيوانات مستأنسة ، ولم تكن من النوع البري الحر الطليق^(١) .

ومن هذا ثبت أن مجتمع هذه القرية (جارمو) كان مجتمعا زراعيا .

ولما كان علماء الطبيعة قد قدروا عمر المخلفات العضوية في ذلك المكان بحوالى ٨٥٠٠ سنة من وقتنا الحالى ، فإنه يمكن القول بأن الزراعة كانت معروفة في الوادى الخصيب في حوالى ٦٥٠٠ ق. م. وربما اكتشفت به ثم انتشرت منه إلى باقى أجزاء

1- G. Dimbleby, Plants and Archaeology London, 1978.

العالم القديم ، وربما اكتشف الإنسان القديم الزراعة في أماكن أخرى أيضا في نفس الوقت وعلينا أن ننتظر من العلم أن يقول كلمته في هذا المجال .

من هذا يتضح مدى قيمة التعاون بين الباحث الأثري والباحث في العلوم ، فقد لزم هنا تعاون علماء النبات وعلماء الحيوان وعلماء الطبيعة وعلماء الآثار كلهم لحل مشكلة واحدة والوصول إلى حل حاسم لها .

الفصل الثالث

أهداف التنقيب عن الآثار :

يظن الكثيرون أن التنقيب عن الآثار هو مجرد الحفر الدائب المضمنى في سبيل الحصول على آثار ثمينة أو تحفٍ جميلة تدر على مكتشفها صيتا وغنى .

والحق يقال إن الحفائر الأثرية كانت قبل نحو مائة عام تهدف إلى البحث عن الكنوز ، غير أن علم الآثار بمدلوله الحديث يختلف عن ذلك اختلافا بينا ، فهو يتلخص في أمرين يرتبط كل منهما بالآخر كل الارتباط :

الأول :

أعمال الحفر والتنقيب واستخلاص الآثار وتسجيل أوصافها وأوضاعها بالنسبة لغيرها والمحافظة عليها وترميمها .

الثانى :

استخدام هذه الآثار المكتشفة في إلقاء أضواء جديدة على

الحضارة الإنسانية الماضية وتطورها واستنباط التاريخ منها^(١) .

إن الكثير من التحف الجميلة الثمينة المعروضة في المتاحف إنما تدين بحفظها بل بوجودها كلية إلى التقدم الرائع الذي أحرزه علم الآثار الحديث في أعمال التنقيب والترميم .

إن هذا العلم كما سبق القول قد ساهم مساهمة فعالة في إحياء تواريخ أمم مجهولة وحضارات قديمة وتجارب إنسانية كبيرة .

يجب ألا نعتقد أن كشف الآثار هو في حد ذاته غاية علمية ، فعلى الرغم من أن اكتشاف كنز مدفون يصحبه دائما ضجة ، فإن اهتمام الجمهور المتزايد بأعمال الآثار لا ينحصر بأية حال من الأحوال في حوادثها المثيرة ، بل إن وراء القصة المجردة شيئاً ذا قيمة حقيقية دائمة .

إنه من الصعب أن نجزم على بعض الاكتشافات بالنسبة إلى قيمتها الحقيقية ومن أمثلة ذلك اكتشاف قبر « توت - عنخ - آمون » في مقابر وادي الملوك بالبر الغربي بالأقصر وقبر « مينوس » في جزيرة كريت ، وكذلك المقابر الملكية في (أور) وهي تلك المدينة التي تقع في جنوب العراق - وينسب إليها حسب بعض الروايات النبي إبراهيم الخليل .

1- W. Wolf, Funde in ogypten, Geschichte Ihrer Entdeckng, 1966.

على أن هناك شيئاً هاماً يجب ذكره في هذا المجال ألا وهو أن علم الطبيعة لا يزال يكشف أمامنا في هذه الأيام أشياء كانت تبدو لأجدادنا في أول الأمر نوعاً من الكفر فهو بالنسبة لهم يحطم أسس العقيدة وبالنسبة لنا يؤسس الفكر على قاعدة أوسع وأكثر منطقية .

العلم يقدر الزمن بملايين السنين ، وعنده تمتد المسافات إلى ما لا نهاية له ، ولكن هذا الخضم الواسع لا يقلل من اهتمامنا بأمور اليوم والغد وربما يؤثر في تصرفاتنا ، إلا أنه موجود وجزء من شعورنا ، وكلما اتسعت الكشوف العلمية تحسنت قدرتنا على فهمنا لأنفسنا .

علم الآثار يعمل نفس الشيء ولكن في محيط أصغر ، فهو يبحث في عصر محدد لا يزيد عن عدة آلاف من السنين ، وليس من شأنه أن يدرس العالم أو حتى الجنس البشرى .

إننا عندما نحفر نتحدث عن هذه الأواني الفخارية أو التماثيل وهذه الحلى وهذه الصناعات والأسلحة ، ونقول إنها ترجع إلى ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، فيراها الناس ويتعجبون من قدمها ويظهرون دهشتهم لا لشيء سوى أنها عتيقة في حين أن أهميتها الحقيقية في حداثتها .

إذا كان مجرد العمر هو المقياس فإن كل ما يكتشفه التنقيب يصبح لا قيمة له . إذا قورن « ببيضة الديناصور » التي تحسب بالملايين ، وما قيمة ستة آلاف سنة في حياة الجنس البشرى إذا ما قارنها بالنسبة للأزمنة الجيولوجية .

إن أهمية ما يعثر عليه من آثار هي أنها تلقى ضوءاً على تاريخ رجال مثلنا تماماً وعلى حضارة متصلة بحضارتنا الحالية .

إن الكشف عن العالم يؤثر فينا جميعاً ، ويصبح جزءاً من الميراث الثقافي العام ونحن ننصف إذا قلنا عن علم الآثار بأنه العلم الذى يهم كل إنسان ومرجع ذلك إلى أن هدفه المباشر خاصة إذا ما قارناه بالعلوم الطبيعية هو أنه يأتى بمقدمات أبسط ، فهو يبحث فى الإنسان الحديث وليس فى ذلك الكون الذى أخذ يتحول شيئاً فشيئاً إلى معنويات ندركها بعقولنا بينما نعتبر ما فيه من مادية من صنع البشر ، وهذا من أهم أهداف التنقيب عن الآثار .

لماذا يحفر الإنسان :

إن هدف علم الآثار هو اكتشاف مجرى الحضارة البشرية وتوضيحه ، وليس من شك فى أن ذلك هدف مهم .

ولكن قد يعترض على هذا بأن ذلك لا يخص المتخصصين فى أعمال الحفر والتنقيب ، بل إن دراسة مجرى الحضارة هي من مهمة علم التاريخ .

وإذا كان الأمر كذلك ، وكان المؤرخ يتخذ من مخلفات الماضى التى ينقب عنها عالم الآثار مادة له ، أليس من الممكن أن نستخرج تلك المادة بالحفر العادى ، هل من مبرر لمن يدعى التخصص فى علم الحفر والتنقيب ؟

أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار في جوهرها تطبيق للطريقة العلمية في التنقيب عن الأشياء القديمة وتقوم على أساس أن القيمة التاريخية لشيء من الأشياء لا تعتمد على طبيعة الشيء نفسه بقدر اعتمادها على متعلقاته التي لا يمكننا ملاحظتها إلا بفضل الحفائر العلمية وحدها .

الحفار الذي لا يعتمد على أسلوب علمي مثل السارق تماما يهدفان إلى الحصول على أشياء ذات قيمة فنية أو تجارية ثم يقف اهتمامها عند ذلك الحد .

أما العالم المنقب عن الآثار ففضلا عن استمتاعه بالعثور على الأشياء النادرة الجميلة لأنه بشر قبل كل شيء فإنه يريد أن يعرف كل شيء عما يعثر عليه ، ثم إنه في جميع الحالات يفضل الحصول على المعرفة أهم من حصوله على الأشياء التي يعثر عليها .

ويعتمد الحفر اعتمادا كبيرا على الملاحظة والتسجيل والتفسير . وهناك اختلاف كبير جدا بين غرض الباحث العلمي ووسائله وبين السارق للآثار .

إن عظم القيمة التاريخية لشيء من الأشياء تعتمد على معرفتنا للظروف التي وجد فيها ، فاذا فرضنا أن أحد الأشخاص أخرج من مكان ما تمثالا أو حلية من الذهب فانه يبيعه ، ثم تنتقل هذه التحفة من يد إلى يد وهكذا إلى أن تنتقل من أحد تجار العاديات إلى متحف من المتاحف أو مجموعة من المجموعات الشخصية ، وحينئذ لا يعرف أحد أين وجدت ، أو

كيف عثر عليها ، ذلك لأنها تكون قد انفصلت عن متعلقاتها ،
وليس في الإمكان أن يحكم عليها إلا بمقدار قيمتها الذاتية . حقا
إن قيمتها كتحفة فنية لم تتأثر ، ولكن ما أهميتها التاريخية ؟

يضطر المتخصصون في هذه الحال أن يخمنوا وأن يرجعوها
إلى قطر من الأقطار وعصر من العصور بفضل المعلومات التي
حصلوا عليها ، إلا أنهم في معظم الأحيان لا يتفقون ، وهكذا
يصبح هذا الأثر موضوع جدال بين العلماء ومصدر ارتباك
للرجل العادي .

مثال ذلك :

اكتشف أحد العمال مصادفة أثناء حفره في خرائب
كنيسة من الكنائس السورية كأسا من الفضة مزخرفة برسوم
أشخاص بارزة يمكن التعرف على أن بعضهم يمثلون السيد
المسيح وتلامذته .

وقد انتقل هذه الكأس إلى أمريكا خلال أيد مختلفة - فقام
أحد تجار الآثار بإعداد قصة تقول إنها اكتشفت في مدينة
(انطاكية) وتلامذة السيد المسيح سموها المسيحيون الأول في
(انطاكية) وهكذا أكد للعالم أنها الكأس المقدسة أي الكأس
الفعلية التي استعملت في العشاء الأخير ، وأنها تحمل صورة
لتلامذة السيد المسيح بل إنها معاصرة له .

وعلى الرغم من أن هذه الكأس كان قد عثر عليها على مسافة
١٥٠ ك . م من انطاكية ، وعلى الرغم من أنها بالحكم على

أسلوب صناعتها نجد أنها صنعت بعد المسيح بما لا يقل عن ٣٠٠ سنة . ولقد كانت بالطبع هناك صعوبة للقضاء على مثل هذا الخطأ بعد أن اكتسب دعاية وقصة دينية مؤثرة .
وهنا يجب أن أذكر أن بعض ما يعثر عليه قد يكون ليس له قيمة مادية في حد ذاته وليس قطعة تصلح للعرض في متحف من المتاحف ، ومع هذا فهو وثيقة تاريخية ذات أهمية عظيمة ، والسبب هو أن هذا الشيء كانت طريقة إخراجه وظروف اكتشافه قد لوحظت بعناية .

ومثال ذلك أن الخرائب الحجرية العظيمة في زمبابوى (جنوب إفريقيا) قد ظلت مدة طويلة لغزا من الألغاز ، وكانت تحيط بها أغرب الآراء فمن قائل إنها بنيت على يد الفينيقيين ، ومن قائل إنها كانت (الأوفير) أى المكان الذى حصل منه سيدنا سليمان على ذهبه ، ومن قائل إنها كانت نقطة أمامية متقدمة لمصر الفرعونية في إفريقيا ، ولو أن أية نظرية من هذه النظريات ثبت صحتها لكان لابد لنا أن نعيد النظر من جديد في جميع آرائنا عن التاريخ القديم لإفريقيا .

إلا أن قطعة لا قيمة لها من الخزف عثر عليها في أساس البناء خلال حفائر علمية منظمة بإتقان وعناية أثبتت أن ما كان يسمى معبدا هو بناء يرجع إلى العصور الوسطى ولا بد أن يكون من عمل الإفريقيين الوطنيين أنفسهم .

من الواضح أن مثل هذه القطعة الصغيرة من الفخار لم تكن بأية حال لتلفت نظر مغامر من المغامرين الذين لا هم لهم من التنقيب غير البحث عن كل شيء نفيس .

لقد قلنا فيما سبق ان البحث عن الكنوز قديم قدم الإنسان
تقريبا .

أما علم الآثار فهو تطور حديث ، إلا أنه في حياته القصيرة
التي تصل إلى حوالى ١٥٠ سنة من الزمان قد أتى بالعجائب ،
وبفضل التنقيب صارت آلاف السنين في تاريخ الإنسان مألوفة
لدينا الآن بعد أن كانت لا يعرف عنها شيء بالمرّة .

وليس هذا كل شيء بل ربما ذلك أهم ما في الموضوع ،
فالتواريخ القديمة التي تعتمد أساسا على الوثائق المكتوبة كانت
تنحصر بشكل كبير في تلك الأحداث التي كانت يعتبرها الكُتّاب في
جميع العصور أحق بالتسجيل كالحروب والحوادث السياسية
وسير الملوك بالإضافة إلى بعض الأضواء الجانبية التي كان
يمكن التقاطها من آداب العصر .

وقد يخرج المنقب كمية أكبر من الوثائق المكتوبة ولكنه
فضلا عن ذلك يزيل الغموض عن أشياء كثيرة توضح لنا فنون
الماضى وصناعاته اليدوية بالإضافة إلى المعابد التي كان يتعبد
فيها الناس والمنازل التي كانوا يسكنون فيها ، والظروف التي
عاشوا فيها ، فهو يزودنا بمادة لتاريخ اجتماعى من نوع لم يكن
من الممكن الحصول عليه من قبل .

ومن الأمثلة على ذلك حضارة كريت أو ما نطلق عليه
الحضارة المنيوية ، كشف عنها المنقبون ، تاريخ وحضارة مصر
الفرعونية قد كشف بواسطة علم الآثار وكشف عنه بتفاصيل

كثيرة لدرجة أننا نعرف عن تقاليد وعادات المصريين القدماء الذين عاشوا منذ خمسة آلاف سنة أكثر مما نعرفه عن سكان انجلترا مثلا في القرن الرابع عشر الميلادي .

ونحن مدينون لمعول الحفار بمعلوماتنا عن السومريين والحيثيين وهما امبراطوريتان عظيمتان ، بفضل التنقيب عنهما أصبحنا نعرف عنهما كل شيء تقريبا^(١) .

ففى جميع أنحاء العالم التنقيب وأعمال البحث عن الآثار جارية على قدم وساق ، فى أوروبا - أمريكا الجنوبية - الصين - الهند وبلاد الشرق الأوسط مصر والعراق وتركيا وإيران وبلاد الشام وبلاد العرب ، كل هذا النشاط الأثرى يكمل معلوماتنا ويضيف آفاقا جديدة إلى فكرتنا عن الماضى القديم للإنسان .

كل هذا بفضل إخراج هذه الآثار إلى النور بطريقة علمية سليمة .

المظاهر الخارجية لعلم الآثار :

تنقيب ، قياس ، رسم - تصوير شمسي - حفظ - ونشر - وكلها أشياء هامة لهذا العلم .

علم الآثار ككل هو فى النهاية قضية ذكاء ، فالرسم نفسه هو وصف وتحليل حين لا يكون هناك تفسير لما يعثر عليه من آثار ، والتصوير الشمسي وسيلة للنسخ الآلى ، أما الرسم فعمل ادراك . ما أخطر الوصف غير الموضوعى ، ومن ناحية أخرى

1- H. Frankfort, Archaeology and The Sumerian, Chicago, 1932.

ما أصعب بلوغ الموضوعية في الوصف ، يجب أن يدل الوصف أولاً على الظاهر المادى الصريح لهذه الآثار . إن هدف الوصف الموضوعى هو الاحتفاظ بالمعطيات المادية للشيء وعدم الاحتفاظ بغيرها ، ثم يأتى التفسير والشرح بعد ذلك .

لا يستطيع عالم الآثار أن يسير إلا من المعلوم إلى المجهول والمقصود إذن بالنسبة إليه أن يجمع الأعمال ويصنفها ويؤسس قاعدة متينة ، ويجب أن تبقى الروح الناقدة في حالة يقظة في كل لحظة ، أثناء البحث والاستقصاء .

علم الآثار ليس وصفاً تفسيرياً فقط إنه تاريخى ، والبناء الأثرى والوثيقة الأثرية لا يأخذان قيمتهما الحقيقية إلا إذا أوصلناهما إلى مكانهما الصحيح ، (التطور — التأثير — رد الفعل .. إلخ)

الاكتشافات الأثرية :

العنصر الدرامى فى أعمال الحفر والتنقيب هو الاكتشاف ، هو العثور على آثار مدفونة فى باطن الأرض فالآثار المدفونة منذ آلاف السنين تعود بالكشف الأثرى إلى الظهور مرة أخرى أمام أعين الناظرين فى وضوح النهار — وعالم الآثار هو أول إنسان يرى هذا الأثر أو ذاك فى مكانه الذى وضع فيه منذ أجيال كثيرة مضت ، ويعتقد البعض أن هذه هى مكافأة فورية ممتازة للمنقب أن يكون أول من تقع عينه على هذا الأثر الموهل فى القدم ، ولكن من وجهة النظر العلمية فإن المسألة الحقيقية كامنة فى أن التنقيب عمل وحيد عمل فريد لا يمكن البدء به من جديد بنفس

الشروط والظروف التي كان عليها قبل الاكتشاف ، فالأعوام التي مرت عليه — الرمال — الأمطار — الرياح — الحروب — الاعتداءات المنسوبة إلى أيدي الأجيال البشرية التي تعاقبت على هذا المكان — كل هذا يؤلف في حد ذاته مجموعة من العلامات الأثرية — بمعنى آخر جميع مراحل التاريخ مسجلة فيها بكثرة من الأفعال ، ثم يأتي المنقب ويغير كل هذا بضربة فأس واحدة ، لذلك يجب على عالم الآثار أن يضع كل هذا في الاعتبار قبل بدء الحفر حتى لا تضيع معلومة أثرية لا يمكن معرفتها إذا فقدت إلى الأبد .

والحق أن المعول يخرب وأعمال الحفر والتنقيب هي تخريب وتدمير لأعمال العصور الماضية لأن أول واجبات المنقب أن يقوم بأعمال حفره في أى قطعة من الأرض الأثرية واضعا في اعتباره أن يصل إلى الأرض البكر الأرضية الطبيعية .

إن الآثار الثابتة فوق سطح الأرض من معابد وكنائس ومساجد ومنازل وتمائيل ومسلات وغيرها هي التي تفلت من معول الحفار ، ولكن في بعض الأحيان يضطر الحفار أن يضحي ببعض الأبنية اللاحقة عصرا في تشييدها لكي يكشف عن مبنى آخر أقدم عصرا وله أهمية كبرى .

إن المأساة الخاصة بالمكتشفات الأثرية هي أن أصغر قطعة فخار أو قطعة حجر أو قطعة ورق بردى صغيرة تعطى أو يمكن ان تعطى دلالة وفقا للمكان المعين الذي توجد فيه ، ومع ذلك يجب على هذه الآثار أن تغير مكانها ، وترفع من مكانها الذي عثر

عليها فيه لنقلها إما للترميم أو للتخزين أو للعرض المتحفي ،
وبهذا العمل يخرب المنقب كل مرة دليلاً وخاصة إذا كان غير
قادر على الاستفادة منه علمياً وأثرياً ولذلك يفضل تركه في مكانه
إلى أن يأتي عالم آثار آخر يستطيع معرفته ذات يوم إذا توفرت
لديه المعلومات الكافية .

متطلبات بعثات الحفر والتنقيب :

المال هو عصب علم الآثار — فالتنقيب والنشر العلمى
لما يعثر عليه هام جداً وهذان وفقاً للأساليب الحديثة يكلفان
غالياً وكثيراً من البعثات الأجنبية أو المحلية تكون مجهزة بوسائل
مادية وعلمية غير كافية ، على أن أعمال الحفر والتنقيب في بلاد
الشرق الأدنى كانت وما زالت هي رغبة معظم المتخصصين في
أعمال الحفر والتنقيب في العالم وتضع الجامعات والمعاهد
العلمية المتخصصة مبالغ كبيرة تحت تصرف هذه البعثات .
بجانب النواحي المالية يجب أن تتوافر لكل بعثة الأعضاء
الآتية :

- ١ — مدير البعثة ويكون عالم آثار متخصصاً في فرع من فروع
الآثار .
- ٢ — نائب مدير البعثة وأن يكون أيضاً عالماً متخصصاً في أحد
فروع الآثار .
- ٣ — مهندس معمارى أو مهندسون معماريون لا بد أن تتوافر
لديهم بعض المعلومات التاريخية والأثرية .
- ٤ — مساعد مدير أعمال البعثة .

- ٥ - فريق من العمال لأعمال الحفر .
- ٦ - رؤساء عمال فنيين للإشراف على أعمال الحفر ذوو خبرة
(انظر لوحة رقم ١) .
- ٧ - عمال لحمل الأتربة والمخلفات .
- ٨ - ديكوفيل لسحب الأتربة الأثرية إذا كانت كثيرة ومكان
لإلقاء الرديم بعيدا .
- ٩ - فرقة تنظيف تزيل النباتات والأعشاب من داخل المعابد
والمباني اللبنيّة وأماكن السكن القديمة .
- ١٠ - فرقة من البنائين مع معاونيهم يكلفون بأعمال الصيانة
العامة والدعم والترميم للمباني التي يكشف عنها .
- ١١ - فرقة لحفظ الرسوم .
- ١٢ - حدادون وبنائون .
- ١٣ - حارس مخزن يراقب المستودع والمعدات .
- ١٤ - فنيون للترميم ولعمل الماكينات .
- ١٥ - رسامون .
- ١٦ - مصورون .
- ١٧ - كاتب لتسجيل العمال ودفتر المرتبات .
- ١٨ - موظفون يكلفون بتدوين الأشياء في لائحة الجرد قبل نقل
الأشياء إلى المخزن والمتعلقة بأعمال الحفر (خيام -
أخشاب - حديد - حبال - فؤوس - سلال - عربات
ديكوفيل - قضبان حديدية .. إلخ) .
- ١٩ - صيدلية مجهزة ببعض الأدوية وخاصة ما يتصل

بحشرات الصحراء مثل مصل ضد لدغة العقرب
والثعبان .

٢٠ — أن يكون هناك خيام كافية للعمال — وبيت لمدير البعثة إن
أمكن .

٢١ — بعض العمال للإشراف على التموين من الماء والغذاء .

٢٢ — كتب علمية تكون لها صلة بالمنطقة التي يجرى فيها العمل
أو ترشد رجال الآثار عن أحسن وسيلة للحفر في منطقة
مثل التي يمارسون فيها أعمالهم .

طرق وفن الحفر :

لقد قال عالم آثار كبير إن الامتناع كليا عن القيام بحفائر
أثرية أفضل من الشروع فيها إذا لم تكن التجربة مع الخبرة
متوفرة لأن هذا يفقدنا أشياء لا يمكن تعويضها .

إن الحفر هو إتلاف مجموعة من المعطيات الأثرية لا يبقى
منها سوى قسم ترجع أهميته بشكل أو آخر لتقدير عالم الآثار
المكتشف ، ولقد قيل أيضا إن الحفر هو قراءة كتاب يضمحل
أولا بأول ، إنها محاولة فيزيائية أو كيميائية يستحيل إعادتها .
إنها مسئولية ضخمة تقع على عاتق عالم الآثار لا بد أن
يكون جديرا بها ، وهل سيكون في حالة تمكنه من حل طلاسم
اللغز ، هل سيستخرج أفضل فائدة من جميع ما يعثر عليه
والذي يعتبر هو أول وآخر ملاحظ لها في مكانها الذي وضعت
فيه^(١)

1- Binford, New Perspectives in Archaeology London, 1968.

على المنقب أن يكون على دراية كاملة بالموقع الذي يعمل فيه تاريخيا وأثريا وأن يطلع على كل أو أغلب ما كتب وسجل ورسم وصور عن المكان المزمع العمل فيه .

كذلك الاستعانة بحذر من سماع بعض التقاليد المحلية المجاورة للموقع وكذلك سماع أقوال بعض كبار السن المشهود لهم بأمانة الكلم أو سبق لهم العمل مع بعثات أجنبية أو محلية .

إننا نرتكب خطأ كبيرا إذا أردنا إقرار طرق حفر عمومية لأجل البحث والتنقيب ، فطريقة العمل يجب أن تتكيف دائما مع المشاكل المحلية وأوضاع الأرض التي يحفر فيها ، على أننى أشدد هنا على أن جميع أعمال الحفر يجب أن يقوم بها متخصصون أغنياء بالتجربة الشخصية ، وإذا لم يملأ هذا الشرط فلن نحصل إلا على آثار لن تساعد بشكل مفيد على حل المشاكل التي تعرضها الآثار نفسها ، فالتجربة بالفعل صفة جوهرية للمنقب ، وما من مبدأ نظري وما من وصفة مكتوبة يمكن أن تغنى عنها . أن العمل بالحفر لا يمكن أن يكتسب إلا بالتطبيق العملي ، ولن تكون أبدا طريقة جامدة ويجب أن تتكيف باستمرار ، ولكن بالإمكان عبرض مبدئين على سبيل المثال :

- ١ — يجب أن يكون الحفر وفقا لعلم طبقات الأرض .
- ٢ — يجب ألا يتوقف الحفر إلا عند الوصول إلى الأرض البكر .

إن هذا المبدأ بسيط ومع ذلك من الممكن أن يكون من الصعب معرفة الأرض البكر أحيانا حيث يكسب الزمن منظر

طبقة جيولوجية أحياناً لأراضٍ قد شغلت من قبل ، ومن ناحية أخرى يمكن أن تتكون مستودعات طبيعية على بناء بشري مهجور ، وبعد عدة قرون تقوم حضارة جديدة على هذه الطبقة إنها حالات نوعية يجب أن يكون المنقب فيها على حذر .

والإستيطان البشري يظهر في التربة على شكل طبقات Strata تضم مواقع عديدة Ioci لذلك على الأثرى الذى يعمل في حقل التنقيب أن يكون له قدرة علمية فائقة على تفهم الطبقات المختلفة بألوانها المتباينة وبمكوناتها المتميزة والعديدة وهذا كله يحتاج إلى خبرة وتمرين .

الطريقة الستراتيغرافية (مختصة بطبقات الأرض)^(١)

تعتبر هذه الطريقة من الاكتشافات الكبيرة والحديثة في فن الحفر والتنقيب في السنوات الأخيرة فهي ذات أصل جيولوجى وباليوثنولوجى Paleoothnologie (علم أنواع مظموزات الأرض من نبات) وذلك لأن هذا يساعد على تحديد وإعطاء دلائل تاريخية متسلسلة ، وتتطلب الطريقة الستراتيغرافية الخاصة بعلم طبقات الأرض التطبيق الدقيق حينما يتعلق الأمر بمناطق آثار تعود إلى عصور ما قبل التاريخ سواء كانت على سطح الأرض ، أو مقابر ، أو أماكن صحراوية أو طفلية أو بها مياه أو على ضفاف الأنهار والبحيرات

1- Stratocumulus (Stratigraphy)Pyddoke, Stratification for the Archaeologist, London, 1961; Gaadyear, Archaeological Stie Science, London, 1971.

إن الحفر وفقا لنظام طبقات الأرض يجب أن يُدار بحیطة شديدة جدا وبدقة ميكانيكية بمعنى أن يكون الحفر طبقة بعد طبقة (٣٠ سم أو ٤٠ سم أو ٥٠ سم أو ١٠٠ سم) وفقا لطبيعة الحفائر ، مع وصف كل مرحلة يتم حفرها بتفصیل وعناية فائقة وذلك لأن الطبقة التي ينتهي الأثرى من حفرها يتخلص منها للبدء في طبقة أخرى على أنه يجب أن يوضع في الاعتبار ما قد يكون قد أصاب هذه المنطقة وهذه الطبقات من عبث اللصوص أو أعمال حفر سابقة غير منظمة جعلت عاليها سافلها وخلطت بين جزئياتها وأصبحت الطبقات متداخلة .

ومن ناحية عامة نرتكب خطأ كبيرا اذا أردنا إقرار طرق عمل عمومية لأجل البحث الأثرى فطريقة العمل يجب أن تتكيف دائما مع المشاكل المحلية وأوضاع الأرض .

على أنني أكرر هنا مشددا أن جميع أعمال الحفر والتنقيب يجب أن يقوم بها متخصصون أغنياء بالتجارب الشخصية واذا لم يملأ هذا الشرط فلن نحصل إلا على آثار لن تساعد بشكل مفيد على حل المشاكل التي تعرضها الآثار نفسها . فالتجربة صفة جوهرية للمنقب ، وما من مبدأ نظري ، وما من وصفة مكتوبة أو مسموعة يمكن أن تغني عنها .

إن العمل بالحفر لا يمكن أن يكتسب إلا بالتطبيق العملي ولن تكون هناك طريقة جامدة ويجب أن تتكيف باستمرار مع العمل في الحقل الأثرى .

إن مشاكل الحفر كبيرة منها على سبيل المثال إن مناطق
عمال التنقيب مختلفة فما يصلح من أسلوب حفر في منطقة
رملية لا يصلح لمنطقة جبلية أو صخرية أو تربة طفلية أو منطقة
بها مياه جوفية ، وكذلك البحث والتنقيب في منطقة آثار يونانية
رومانية يختلف عن البحث والتنقيب في منطقة آثار فرعونية أو
إنسان العصور الحجرية الأولى في عصور ما قبل التاريخ .

الفصل الرابع

حفظ ما يعثر عليه من اثار:

الحفر هو تغيير معالم الأرض واستخراج أثر يعنى تعريضه لتأثيرات العوامل الطبيعية ، لذلك فإن حفظ الآثار وكل ما يعثر عليه ليس أقل أهمية من اكتشافها .

يقال دائما لا يحفظ بشكل جيد إلا مانقب عنه بشكل جيد .
(انظر لوحة رقم ٤ ، ٥ ، ٦) .

وتبدأ أعمال الحفظ من المراحل الأولى لبدء أعمال الحفر والتنقيب ، لنقرر بشكل مبدئى أن فكرة الحفظ تبدأ دائما منذ أول ضربة فأس ، وهذه الفكرة يجب أن تكون ماثلة أمام عالم الآثار — قد يضطر عالم الآثار في بعض الأحيان أن يقوم بهدم مبنى على سبيل المثال من عصر متأخر ، هذا المبنى متهدم ولا يمكن الاحتفاظ به ، ويخفى تحته أثرا هاما من عصر أقدم ، في هذه الحالة لا بد من التسجيل الكامل لهذه البقايا المعمارية

وتصويرها من جميع الزوايا ، ومراجعة الصور بعد أخذها
والرسوم بعد رسمها قبل أن يهدم هذا الأثر وهو لا يزال في
مكانه .

على الحفار أن يكون دائماً مستعداً لتقوية وتدعيم كل
ما يخرج من باطن الأرض حتى لا يفقد الأثر المكتشف ميزة من
مميزاته التي ساعدت الظروف حفظها له أثناء وجوده تحت الرديم
في باطن الأرض .

وكما سبق الإشارة إليه مقدماً ، إن الحفظ الأثرى العلمى
دائماً يبدأ منذ اللحظة الأولى الذى يبدأ منها معول الحفار عمله
في التربة الأثرية .

ولابد من الإشارة إلى أنه في بعض الأحيان يكون الحفظ غير
فعال أو نجد في بعض الأحيان أن التكوينات الرسوبية الرطبة
جدا لا تستطيع أن تقاوم العوامل الطبيعية عند اكتشافها ، فهي
سريعة التأثير وخاصة اذا كانت رطوبة الأرض قد أثرت عليها
خلال العصور القديمة ، وحتى ساعة اكتشافها ، حتى أن
بعضها إذا ما رأى النور مع العوامل الجوية لحظة الكشف عنها
تتفتت ، لذلك يجب أن يكون هذا في الاعتبار أثناء الحفر . ولا بد
من وجود المواد والمتخصصين الذين لهم قدرة عالية على منع هذا
الهدم لآثار يكشف عنه لا يستطيع أن يقاوم العوامل الطبيعية ،
كذلك الألوان سهلة التأثير بالاضاءة والعوامل الجوية ، كذلك
النصوص المحفورة والمكتوبة بأنواع من الجير يجب الحفاظ
عليها بأسرع ما يمكن قبل أن يختفى بسبب العوامل الجوية .

أيضا يجب على الحفار أن يضع في اعتباره وهذا شيء هام الحفاظ على منطقة الحفائر بعد انتهاء العمل منها حتى لا تكون عرضة للعبث وتتغير معالمها قبل أن تنتهى أعمال الحفر والتنقيب فيها .

ولقد ظهرت فى الآونة الأخيرة العديد من المقالات العلمية التى تتحدث عن كيفية الحفاظ على الأحجار ووسائل وقايتها من الرمال التى تؤثر أيضا على بعض أنواع من الآثار وخاصة المصنوعة من الأحجار الرملية وكذلك السيراميك والبرونز .

إن النباتات أحد الأعداء الرئيسيين للآثار وخاصة تلك التى لها جذور تمتد لمسافات طويلة فى باطن الأرض .

الترميم :

كشف أثر من الآثار لابد أن يعد بحيث يمكن الوصول اليه بسهولة ويمكن دراسته بواسطة علماء آخرين غير الأثرى الذى عثر عليه وكذلك يمكن عرضه فى المتاحف للتذوق الفنى وخلافه ، وهذا يستدعى الترميم الدقيق .

والترميم كما نعلم هو عملية دقيقة ذات عرف خاص يكاد أن يكون عالميا الآن وهو فى نفس الوقت عملية فنية ذوقية جمالية تحتاج إلى حس عال وحساسية ، كذلك تعتمد على المهارة اليدوية .

ويمكن القول إن عملية الترميم هى عملية تجميل وإعادة المواد الأثرية إلى شكل أقرب إلى أصلها بدون إضافة متلفة أو مزورة ، ومن وجهة نظرنا يمكن القول إن الترميم هو عملية علاج

للأثر الذى مضى عليه فى بعض الأحيان آلاف السنين فى محاولة لإزالة بصمات الزمن ومظاهرها الكثيرة ، مثل الكسور والتشققات ، والتهتكات وكذلك الثقوب ، وفى بعض الأحيان اختفاء أجزاء تختلف فى حجمها أو مساحتها وسبب هذا بصمات الزمن العديدة من عوامل طبيعية وكيميائية وبيولوجية تؤدى فى النهاية الى حالات ضعف قوة تماسك مادة الأثر وأحيانا تصلب للمواد المرنة مثل الجلد والورق والخشب وخلافه . (انظر لوحة رقم ٧ ، ٩ ، ١٠) .

هناك مواد عضوية تتميز بخاصية تعرف بظاهرة التقادم بمرور الزمن ولا نعنى به هنا المعنى الحرفى لكلمة زمن ولكن المقصود العوامل البيئية المحيطة المختلفة من عوامل كيميائية كنتيجة للتلوث الجوى للبيئة بالأثر مثل غاز ثانى اكسيد الكبريت الذى يلتصق بسطوح الكتابة وفى وجود الرطوبة الجوية يتحول إلى حمض الكبريتيك الذى يؤثر تأثيرا كبيرا على النقوش والكتابات .

كذلك العوامل الطبيعية من حرارة ورطوبة وارتفاع درجة الحرارة وكذلك الجراثيم الفطرية تؤثر على ما يعثر عليه من آثار .

نحن نعلم أيضا أن الإضاءة تحتوى على الأشعة فوق البنفسجية بنسبة عالية ، وأن ضوء الشمس المباشر يؤثر على ما يعثر عليه من أوراق إذا لم يتم حفظها بسرعة ، وكذلك على الألوان حتى إنه يوجد الآن اتجاه فى المتاحف بخفض شدة

الإضاءة للحدود المأمونة لأن الإضاءة القوية تؤثر على الألوان والآثار المعروضة .

والمعروف أن ضوء الشمس المباشر على أى أثر من الآثار يؤثر عليه إذ يتلف فى كثير من الأحيان المواد الصاقلة له ويؤثر على ألوان الحبر الذى كتبت به أولونت به النقوش والكتابات بل ويمحوها فى بعض الأحيان .

يجب أن يرمم كل أثر يعثر عليه بصورة مرضية ليعود إلى حالته الأصلية إن أمكن دون العبث أو تغيير هويته الأثرية كذلك هناك بعض القطع الأثرية من الصعب ترميمها وفى هذه الحالة لا يمكن إصلاحها وإرجاعها إلى حالتها الأصلية وعليه فإن مهمة المرمم هى تثبيت حالة الأثر وحفظها على ما هى عليه بعد تخليصها من الأسباب التى أوصلت الأثر إلى هذا الحد الذى يصعب معه ترميمه ترميماً سليماً . (انظر لوحة رقم ٩ ، ١٠) .

ويجب أن نضع فى الاعتبار شيئاً هاماً جداً وهو عند علاج أثر من الآثار على المرمم أن يختار الطريقة الملائمة للعلاج التى لا تعرض الأثر لأى نوع من التلف المظهرى كتغير اللون أو طبيعة المادة أو التلف الداخلى وهذا هام .

بعد الترميم لابد أن يكون واضحاً أن يتعرف الإنسان بسهولة ويسر أن يميز القديم من الجزء الذى تم ترميمه حديثاً .

وأخيراً إن عملية الترميم هى العملية النهائية بعد عملية المعالجات الكيماوية والتى تشمل تنظيف الأثر وتقويته ودور

الترميم هو لمسة اليد الجمالية التي تعيد للأثر رونقه القديم قدر
الإمكان .

التسجيل الأثرى :

يقوم الأثرى أثناء عمليات الحفر والتنقيب بتسجيل سير
العمل وكتابة كل ما يجرى في حقل العمل لحظة بلحظة يذكر كل
شئ مهما كان ، وهذا ما نطلق عليه اليوميات Dairy وكذلك عليه
أن ينشأ ملفات لحفظ الوثائق والسجلات - والدفاتر واللوائح
والصور والنشرات التي توضح سير العمل وتفسير المنقب على أن
يكون هناك أرشيف كامل لكل شئ ولكن من الأشياء الهامة في
هذا الأرشيف هو التسجيل الأثرى لما يعثر عليه في السجلات
بعد الترميم والذي يجب أن يكون كالآتى :

١ - ترقيم صفحات سجل الآثار بأرقام اذا لم تكن مرقمة
أو التأكد من الأرقام للأهمية .

٢ - استيفاء جميع البيانات الواردة بالسجل استيفاء
كاملا على أن يذكر في خانة الملاحظات حالة الأثر من حيث سلامة
الأثر أو وجود كسر أو نقص به ، كما يجب الإشارة إلى ما تم من
ترميم إذا كان الأثر قد رمم .

وفي حالة إذا ما كان الأثر قد عثر عليه نتيجة حفائر خلصة
أو بطريق المصادفة أو غير معروف اسم المكتشف يجب في هذه
الحالة ذكر ذلك في حالة المكتشف .

وبالنسبة لتاريخ الأثر يجب الكتابة في المكان المخصص
لذلك تاريخ الأثر على وجه التقريب مع وضع علامة استفهام إذا
لم يكن التاريخ مؤكدا .

٣ - يذكر قرين كل قطعة مقيدة بالسجل يتم نقلها المكان الذى نقلت إليه وتاريخ النقل واسم المشرف على النقل إن أمكن مع ضرورة حفظ صورة من كشوف الآثار التى تنقل من منطقة العثور عليها إلى أية جهة أخرى موضحا بها تاريخ النقل والمكان الذى نقلت إليه سواء كان متحفا أو حتى خارج البلاد مع ذكر البلد أو المتحف الأجنبى الذى نقلت إليه .

٤ - ضرورة وضع صورة للأثر ونقل النصوص المسجلة عليه بخط اليد بكل دقة وعناية على أن تكون الصور أبيضاً وأسوداً وأيضاً ملوناً لإظهار ما عثر عليه من ألوان خلال العام الذى كشف فيه عن الأثر .

عرض الآثار :

من يَقلُ حفر يَقلُ متحف - فأغلب الأشياء الأثرية التى يعثر عليها يجب أن يكون مكانها الطبيعى العرض المتحفى إن أمكن ذلك وليس القاءها فى المخازن تعانى من الرطوبة والحشرات والعوامل الجوية التى تؤثر عليها. إننا نرى أنه من الأفضل أن نترك الآثار فى باطن الأرض إذا لم يعد الإعداد الكافى لعرضها والحفاظ عليها قبل الكشف عنها .

فهذا أفضل للأثر وخاصة إذا لم يكن هناك ضرورة ملحة لإخراجه من باطن الأرض .

المتاحف هى معاهد علمية وهى فى أغلب الأحيان متخصصة ، على سبيل المثال متحف للآثار اليونانية الرومانية أو

للآثار الإسلامية ، وكذلك توجد متاحف اقليمية و متاحف محلية و متاحف وطنية يمكنها أن تستقبل و تعرض ما يعثر عليه من آثار سواء للدراسة أو المشاهدة للزائرين .

النشر العلمي :

علم الآثار ينقسم قسمين الأول هو التنقيب والترميم والحفظ ثم العرض ، وهذا هام ولكن الأهم من ذلك هو النتائج العلمية التي يتوصل إليها عالم الآثار ، ونشرها ووضعها تحت تصرف أكبر عدد ممكن من العلماء كل في تخصصه يجد فيها ضالته .

ويرى بعض العلماء أنه إذا لم تنشر النتائج الخاصة بما تم العثور عليه فالأفضل أن يترك الأثر في باطن الأرض دون الكشف عنه .

يستطيع أن يرى الإنسان ما عثر عليه معروضا في متحف من المتاحف ، ولكن ما يراه شيء له ميزة فنية أو جمالية أو مادية أو لغوية أو علمية ، ولكن لا يعرف عنه شيئا أكثر من ذلك ، وكذلك يستطيع الزائر أن يزور منطقة الحفر ولكنه لن يخرج منها بأكثر مما يخرج به من المتحف وهذا كله مرهق ومكلف وفي بعض الأحيان صعب المنال .

لذلك هناك مبدأ هام لكل شيء يعثر عليه يجب أن ينشر وبسرعة ، طبعا هناك عقبات كثيرة أمام النشر إذ كل شيء يعثر عليه يحتاج إلى دراسة عميقة متأنية حتى يستطيع الباحث أن

بيدى رأيا سليما مدروسا وأيضاً يتعطل النشر العلمى اذا لم يكن العمل قد استكمل بعد .

إذا تعذر النشر العلمى قبل إتمام العمل ، وأن هذا العمل ربما يستغرق سنين طويلة وفي هذه الحالة لابد من تقارير مبدئية تنشر في الحوليات الحاصة يذكر فيها الأشياء الجوهرية ، ثم يتبعها بعد ذلك النشر النهائى ، ولو أنه كما نعلم من النادر أن يكون النشر نهائياً في موضوع من الموضوعات .

إن تقدم علم الآثار وكثرة الإكتشافات والأساليب الحديثة قد ساعد كثيرا في تفسير ما يعثر عليه سواء من ناحية المادة أو اللغة أو الأسلوب أو المكان الذى يوجد به وأشياء كثيرة أخرى تدخل الآن في شرح كثير من المواد الأثرية التى يعثر عليها .

فمثلا استعمال الكومبيوتر حيث وجدت في أساسات معبد الكرنك بالأقصر في الصرح التاسع لهذا المعبد ما يربو على ٥٠,٠٠٠ قطعة من الحجر الرملى المنقوش الملون وهى من أجزاء معبد مهدم لإخناتون ، وكان من الصعب تجميع هذه الأحجار لإمكان إعادة بناء هذا المعبد ومعرفة تفاصيله ، وقد رؤى في هذه الحالة الاستعانة بالعقل الإلكترونى ، فأعدت كروت بأوصاف هذه القطع ووجهت إلى العقل الالكترونى أسئلة خاصة ، وتلقينا الإجابات ، ومنها أمكن تجميع معظم القطع ، والتى سوف تساعد على معرفة تخطيط المعبد الأصل وتكوين المناظر التى كانت تحلى جدرانها

على أن هناك شيئاً خطيراً يجب التنبيه إليه ألا وهو أن بعض رجال الآثار يعتمدون في بعض الأحيان على التقارير التمهيديّة ولا ينشرون التقرير النهائي مطلقاً .

نحن نعلم أن للمكتشف الحق في أن ينشر ما يعثر عليه بنفسه ، لكن أيضاً يجب إجباره بعد فترة معقولة أن ينشر ما يعثر عليه ، إذ لا عذر لعالم الآثار أن يحتفظ بنتائج ما يعثر عليه .

ولو أنني أود أن أقرر هنا أن النشر النهائي معناه تنقيب نهائي في مكان ما .

على أننا يجب أن نشير هنا إلى أنه في حالة النشر هناك أشياء أصبحت أكثر من ضرورية إذ يجب ألا نتكلم عن أثر من الآثار التي عثر عليها أثناء التنقيب أو ننشر في مقال أو كتاب شيئاً عنه دون أن نضع أمام عيني القارئ جميع القطع المدرسة وأهمها الرسوم والصور الشمسية سواء أكان الأمر يتعلق بنقوش أو مكونات أو رسوم أو تماثيل أو تحف أو هندسة أو بناء أو سيراميك فالتصوير الشمسي أصبح المساعد الذي لا غنى عنه للنشر الأثرى ، إن الصور الشمسية يجب أن تكون وثائقية قبل كل شيء .

الفصل الخامس

المسح الأثرى :

Archaeological Survey

المسح الأثرى أصبح الآن من أهم الوسائل الواجب استخدامها على مختلف مستويات البحث الأثرى ، ولقد بدأ استخدام المسح الأثرى منذ بداية الاهتمام العلمى المنظم بالبحث والتنقيب عن الآثار ، فالآن لا يمكن عمل حفائر فى منطقة من المناطق دون عمل مسح أثرى للمنطقة المراد العمل فيها ، ولعل من أهم وأشهر أعمال المسح الأثرى خلال هذا القرن وخاصة فى الستينات ما تم فى بلاد النوبة المصرية حينما فكر فى إنشاء السد العالى فى أسوان واستدعى ذلك عمل مسح أثرى لكل المناطق الأثرية التى سوف تغطىها مياه النيل خلف السد العالى فى المنطقة ما بين الحدود السودانية المصرية وأسوان مسافة تربو على ٣٠٠ كيلومتر ولقد قامت بعثة إنجليزية من جامعة لندن برئاسة عالم الآثار الإنجليزي أمرى وكان لنا شرف الاشتراك فى عملية المسح الأثرى هذه والتى كانت من أهم الأعمال التى تمت فى بلاد النوبة وساعدت فى أعمال الحفر

والتنقيب لإنقاذ أكبر عدد من الأماكن الأثرية والتي كانت مهددة
بالغرق تحت مياه السد (١) .

كلمة مسح أثري Survey

معناها مجهود معين يبذل لتحديد أماكن أثرية وجردها
ومعرفة أفاقها المختلفة .

وخلال الجزء الأخير من القرن الماضي وبداية القرن الحالى
شارك كثير من علماء الآثار بمجهودهم فى وضع أسلوب ومنهج
علمى لطريقة المسح الأثرى ، والذي كان غالبا ما يعتمد على
جرد وتسجيل وحصر الأماكن ذات الطبيعة الأثرية من واقع
شواهد أثرية على سطح الأرض .

على أن هناك جهود علماء كثيرين فى هذا المضمار نذكر منهم
على سبيل المثال ساند فورد وأركل وماقاما به من مسح أثري فى
مناطق عديدة أهمها منطقة الأقصر واهتما بعصور ما قبل
التاريخ وجمع القطع الصوانية من آلات وأدوات صنعها
الإنسان الأول ، كذلك العالم البريطانى « ستاين » (Stein)
الذى قام بأعمال مسح أثري تعتبر هامة بالنسبة لهذا العمل
الهام فى حقل الآثار (٢) .

وفى أواخر القرن الماضى وخلال النصف الأول من هذا القرن
لم يكن هدف المسح الأثرى مجرد مقدمة للبدء فى أعمال التنقيب

١ - لقد اشترك المؤلف فى عملية المسح الأثرى مع بعثة الآثار الانجليزية والتي صدر عنها تقرير
H Smith, Nubian Archaeological Survey, Cairo, 1962.

2- H. Sandford In AJSL, XL VIII (1932), P. 177 ff.

في منطقة ما وكذلك تسجيل أعداد وأنواع المواقع الأثرية المختلفة ، بل تعداه إلى أهداف أخرى تتصل بمضمون ونوعية البحث الأثرى .

لقد تمكن بعض العلماء المشرفين على أعمال البحث الأثرى من الوصول إلى بعض النتائج المتعلقة بالحياة الاقتصادية والتجارية وكذلك العلاقات الاجتماعية بين سكان أماكن مختلفة من خلال المسح الأثرى الذى أشرفوا عليه دون إجراء أعمال حفر وتنقيب حيث إنه فى بعض الأحيان تكون الشواهد الأثرية على سطح الأرض كافية لإعطاء مثل هذه النتيجة من خلال مقارنات وتحليل عينات ومبان ومواد مستعملة فى هذه المباني ، إذ أمكن ربط عدة مواقع متباعدة جغرافيا ضمن حلقة اقتصادية واحدة بفضل ملاحظة وجود أنواع متشابهة من المواد الخام ، وكذلك أنواع الفخار والأحجار والمعادن المستعملة والتي تدل على أن هناك اتصالا وترابطا مباشرا بين سكان تلك الأماكن المختلفة ورغم بعدها عن بعضها البعض ، لذلك يعتقد بعض العلماء أن المسح الأثرى أصبح هدفا ووسيلة فى آن واحد . فهو من ناحية يبرز حقائق جوهرية وأساسية عن بعض أوجه الحياة القديمة وفى نفس الوقت يعمل على تمهيد وتنظيم مجال التنقيب عن الآثار .

على أن استخدام المسح الأثرى سواء كهدف أو وسيلة لم يكن منتشرا فى مختلف مجالات وأماكن الأبحاث الأثرية كما يجب أن نتوقع ، حتى إن معظم الأبحاث الأثرية التى تمت فى

نهاية القرن الماضى وخلال النصف الأول من هذا القرن لم يتم استخدام وسيلة المسح الأثرى سوى فى مناسبات محدودة وأماكن قليلة .

ولقد كانت تتم أعمال حفر وتنقيب مختلفة فى منطقة واحدة وليس هناك ترابط موضوعى أو منهجى فيما بينها وذلك بسبب انعدام الترابط الذى يتوفر عن طريق المسح الأثرى ، ونتيجة لذلك تشتت الجهود وتخلق فى بعض الأحيان أخطاء علمية وأثرية ربما تحتاج الى سنوات طويلة لتصحيحها وخاصة فيما يتعلق بحضارات ما قبل التاريخ واكتشاف الإنسان للكتابة .

والملاحظ حالياً أن كثيراً من الدول الغنية بالآثار قد أجرت تعديلاً فى نظم التنقيب عن الآثار فى بلادها لأنهم اكتشفوا التبذير والاسراف اللذين صاحبا أعمال التنقيب فى الماضى ، حتى إن بعض الدول الآن مثل تركيا ، إيران ، والعراق تصر على أن يتعهد الباحث بإجراء مسح أثرى حول المنطقة التى يرغب التنقيب فى موقع فيها وذلك قبل وبعد أعمال التنقيب نفسها .

وفى بعض المناطق الأثرية الهامة أوقفت أعمال التنقيب تماماً أو بصفة مؤقتة ريثما يتم إنجاز مسح أثرى شامل ، وتشترط مصر الآن ضرورة إجراء مسح أثرى لأية منطقة يصرح لبعثة أجنبية بالعمل فيها وخاصة بالبلدنا .

تطور المسح الأثرى :

لقد طرأت أفكار ونظم جديدة تخص منهج المسح الأثرى نتيجة للتجديد الذى طرأ على علم الآثار .

لقد وضع علماء الآثار جل همهم لتطوير مفاهيم علم الآثار وتطوير أسلوب التحليل العلمي من الموضوعية إلى التجريدية وكذلك تعميق أبعاد البحث الأثري لكي يجذب إليه علوما واختصاصات مختلفة في مجالات الطبيعة والرياضيات والعلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية ، وانبعث عن كل هذه الابتكارات أسلوب جديد للبحث على طريقة النظم المستقلة (Systems Approaches)

ويعنى هذا أن عالم الآثار عندما يبدأ معالجة مادته أو أية مشكلة أثرية يجب أن ينظر إليها من خلال الإطار المعيشي الكامل للإنسان سواء من ناحية التضاريس الجغرافية للمنطقة التي سكن فيها الإنسان ، أو مواردها الطبيعية من ماء ونبات وحيوان ومناخ ومظاهر التعرية ومعادن^(١) .

وهذه النظرة بطبيعة الحال تتطلب تضافر العديد من العلوم والتخصصات عند فحص المشكلة الأثرية .

ويعتقد البعض أن دراسة الإنسان في الماضي تركز في الأساس على النظرية القائلة بأن هناك توازناً طبيعياً خفياً بين جميع معطيات الحياة وظواهرها في البيئة المحيطة ، ويشمل ذلك كافة الكائنات الحية بما فيها الإنسان .

فتواجد الإنسان في مكان ما لغرض العيش سواء بالاستقرار أو الارتحال يترتب عليه العديد من المضاعفات بعضها سلبى والآخر ايجابى في الطبيعة المحيطة به ، فإذا

1- H Kantor, in (INESI), 1942 P. 147 ff.

ما قمنا بدراسة هذه الطبيعة وتحليلها قبل عامل التدخل
البشرى وبعده يمكن تحديد أوجه وأنماط العلاقة البشرية مع
البيئة الطبيعية على مختلف مستوياتهما وهذا بالطبع يحقق
لرجل الآثار مدخلا هاما لتفهم مشكلة الحياة الإنسانية في الماضي
وبالتالى تفسير تاريخ التطور الحضارى بشيء من التحليل
العلمى .

ونتيجة لهذا برزت الحاجة الماسة إلى تطوير وسائل حقلية
لممارسة تطبيق هذه المفاهيم على مشاكل الحفر والتنقيب .

وخلال العقدين الأخيرين تركز الاهتمام على تطوير عمليات
المسح الأثرى لأن المسح الأثرى من أقرب الوسائل لتوفير
الإنتاج البحثى الذى تتطلبه معالجة دراسة النظم ، ومن هنا
بدأت فكرة المسح الأثرى الشامل الذى يهدف ليس فقط الى
حصر الآثار المنظورة بل يتعدى ذلك إلى هدف الوصول إلى الإطار
البيئى الكامل الذى عاصر كل فترة أو زمن محدد من الأزمنة
الأثرية المعروفة .

منهج المسح الأثرى :

١ - دراسة وتحليل مصادر الموارد الطبيعية الخام إلى
جانب الماء والنبات ، مثل : الطين - الأحجار - المعادن وغيرها
مما برز في استخدامات الإنسان القديم ، ثم ربط هذه الدراسات
والتحليلات بما هو موجود في المواقع الأثرية .

٢ - دراسة وتحليل التغيرات السطحية الجغرافية
Geomorphology وهذه لها مساس فى الغالب بأبحاث العصور

التاريخية القديمة وما قبل التاريخ . وتتضمن هذه الدراسات
مثلا : فحص تغييرات مجارى المياه كالأودية والأنهار وتغيرات
منسوب المياه فيها عبر الأزمان ، وكذلك بالنسبة للآبار والعيون ،
ومنسوب المياه الجوفية حيث من الواضح أن لهذه الظواهر
علاقة مباشرة بالاستيطان البشرى أو انعدامه^(١) .

كذلك تتضمن هذه الدراسات فحص الطبيعة التضاريسية
لمعرفة التحولات السطحية عبر آلاف السنين كزحف المناطق
الرملية وتقلص الأراضى الزراعية الخصبة نتيجة لذلك وبسبب
سوء الرى والصرف .

٣ — دراسة وتحليل تحولات منسوب مياه البحار : وهذه
الظاهرة بالطبع لها علاقة بالتغيرات المناخية خصوصا قبل وبعد
العصور الجليدية المعروفة .

غير أن هناك تغيرات فى مناسيب مياه البحار ليست لها
علاقة بتلك الظاهرة المشهورة ، كإحداث الزلازل والبراكين
والانخفاضات التضاريسية وغيرها .

ولقد برزت أهمية هذه الدراسات مؤخرا فى اكتشاف
حضارات المستوطنات البشرية على سواحل الخليج العربى
والبحيرات كبحيرة الفيوم فى مصر .

1- Kees, Das Alte Agypten, Berlin 1941; D. Oates, The Rise of Civilization. Oxford, 1976.

دراسة وتحليل ظواهر المناخ في العصور القديمة .

لعل هذه الدراسة تعتبر من أهم قواعد المسح الأثرى الشامل فمنها تتوفر الأدلة الرئيسية في التعرف على مواقع الاستيطان البشري في الفترات المختلفة .

وتتم الدراسات غالباً عن طريق التحليل الطبوغرافي السطحي للمساحات الشاسعة التي يعتقد وجود آثار بها ، خاصة التي تعتبر جافة في الوقت الحاضر ، ويمكن أيضاً إجراء « جسات » استطلاعية في مواقع طبيعية لاستنتاج التسلسل الطبقي للترسيبات الأرضية القريبة العهد .

فقد أظهرت دراسات مثيلة لهذه ، الكثير من الدلائل التي أشارت إلى وجود بحيرات مياه عذبة في المناطق التي تتصف بالصحراوية حاضراً مما ساعد على اكتشاف مواقع أثرية كثيفة حول مناطق البحيرات القديمة .

وأذكر هنا على سبيل المثال « إقليم الربع الخالي » بالمملكة العربية السعودية حيث أظهرت الدراسات المتعلقة بالمناخ والتربة وجود بحيرات مياه عذبة قبل حوالي ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ سنة ماضية ، وبناء على ذلك تم اكتشاف عشرات المستوطنات الأثرية الهامة التي ازدهرت حول شواطئ تلك البحيرات .

على أن هناك طريقة أخرى لاستنباط المقاييس المناخية القديمة ، تتعلق بإجراء « جسات » اختبارية في مواقع العيون

المائية القديمة حيث تظهر تراكمات سطحية تسجل التسلسل
المناخى عبر العصور المختلفة داخل الترسبات التى صاحبت
فترات الجفاف والأمطار المتعاقبة .

وحيثما نقوم بتحليل المخلفات النباتية المتواجدة فى هذه
الترسبات يمكن التوصل إلى معرفة المناخ السائد فى كل فترة
زمنية تمثلها الطبقة الرسوبية .

وتجدر الملاحظة هناك أن الاستنتاجات المناخية القديمة
لمنطقة ما قد تنطبق على مناطق مجاورة ، وذلك يعزى الى كون
المناخ عادة يتصف بالمحلية المطلقة – بمعنى أن التغيرات
المناخية التى تحدث فى منطقة ما وينتج عنها تقلبات فى نسبة
الأمطار أو الجفاف لا يمكن تطبيقها على منطقة مجاورة لها
واعتبارها أنها حدثت على نفس المنوال .

وكمثال على هذه الظاهرة أذكر هنا الرأى السائد عن مناخ
الألف الثانى قبل الميلاد فى منطقة شرقى حوض البحر الأبيض
المتوسط الذى يعتقد أنه كان مطيرا ومعتدلا ، ولقد ذهب العلماء
إلى اعتبار أن هذا المناخ كان أيضا يسود معظم منطقة شمال
الجزيرة العربية وصحراء الشام ، غير أن الأبحاث التى تمت
قريبا أثبتت عكس ذلك .

إن أهمية دراسة المناخ بالنسبة للمسح الأثرى الشامل
يجب أن تقوم على دراسات مناخية منفصلة للأقاليم المحلية ، أى

كل إقليم على حدة وعدم الاعتماد على استنتاجات الأبحاث في أقاليم مجاورة^(١) .

منهج البحث الأثرى الشامل :

إن تطبيق منهج المسح الأثرى الشامل في الأقاليم التي تشهد أعمال حفر وتنقيب كثيرة ، يعتبر أهم قاعدة يمكن الأخذ بها لبناء وتطوير هيكل المعرفة الأثرية في تلك الأقاليم لأنه ليس فقط يتسم بطابع العلمية الحديثة بل له أيضا مزايا تنظيمية في الحقل الأثرى . على أنه توجد متطلبات رئيسية من الناحية العلمية والعملية يجب توفرها عند الرغبة في القيام بالمسح الأثرى الشامل أهمها : —

١ — الدراسة التحضيرية :

وتشمل تحديد الرقعة الجغرافية المراد إجراء المسح الأثرى فيها ، وإذا كانت هذه المنطقة شاسعة تقسم طبوغرافيا بحيث تتفق كل وحدة مع الوحدات البيئية المستقلة ، بمعنى ألا تتداخل مناطق السهول مع المرتفعات أو بطون الأودية مع الهضاب والمناطق الصحراوية^(٢) على أن القاعدة الواجب اتباعها هي أن يتم مسح كل وحدة من هذا التقسيم على حدة .

وإذا حدث وكانت هناك دلائل ومكتشفات أثرية معروفة قبل البدء بعملية المسح الأثرى في الوحدة البيئية المستقلة ، يجب أن تدرس هذه الدلائل وتصنف من حيث طبيعتها وتؤخذ كمقياس

1- Pj. Ucko, Man and Settlement and urbanism, London, 1472.

2- Jevan, An Introduction to enviromenal Archaeology, London, 1978.

للتعرف من خلاله على نوعيات الآثار التي تكتشف خلال المسح الأثرى .

على أنه يجب أن تجرى دراسات مقارنة مع الآثار المتخلفة المعروفة داخل وخارج الإقليم بغية التوصل الى تحديد الفترة الزمنية التي ترجع إليها الآثار قبل البدء في عملية المسح الأثرى ، على أن الظروف المحلية والخاصة لكل حالة تحكم الطرق والوسائل التي تتم الدراسة التحضيرية من خلالها .

كذلك يجب الاطلاع على الكتب والمراجع العلمية وخاصة الجغرافية منها وما كتبه الرحالة وخاصة المؤرخون من العرب الذين زاروا المنطقة المراد العمل فيها على أن يتم ذلك أثناء الدراسة التحضيرية لعملية المسح الأثرى .

متطلبات المسح الأثرى :

١ — خرائط جغرافية مقاس ١ : ٥٠,٠٠٠ وهى ذات أهمية قصوى في تعيين الأماكن المراد العمل بها .

٢ — خرائط جيولوجية — مبين عليها التضاريس التفصيلية وهى عامل مساعد على إظهار التغييرات الجيولوجية في منطقة المسح الأثرى .

٣ — الصور الجوية ذات مقياس مناسب ١ : ٢٠,٠٠٠ ، ٥٠,٠٠٠ حيث إنها تساعد على اكتشاف الظواهر الأثرية التي لا يسهل اكتشافها خلال المسح الأرضى .

٤ — الاستعانة ببعض الدراسات المفيدة في هذا المجال مثل الدراسات المتعلقة بمصادر المياه الجوفية ، وعوامل التربة

والمناخ — كذلك بعض الدراسات المتصلة بالمعادن وطبيعة الصخور في المنطقة المراد إجراء المسح الأثرى بها^(١) .

٥ — تجهيز بعثة المسح الأثرى بوسائل تنقلات تلائم وتناسب المنطقة التي ستجرى فيها البحث والحراسة الكافية ومواد التموين اللازمة حيث إنه كثيرا ما يتم العمل في أماكن بعيدة عن العمران .

أعضاء بعثة المسح الأثرى :

يتطلب المسح الأثرى خبرات تخصصية مختلفة .

١ — على رأس هذه التخصصات عالم آثار يكون همزة الوصل بين التخصصات المختلفة على أن يكون لديه إن أمكن هو ومساعدوه من رجال الآثار خلفيات محددة في استراتيجيات المسح الأثرى ، والإلمام إن أمكن بالقواعد الأولية في استخدام أدوات التحديد الجغرافي وآليات المساحة .

٢ — مساحين متخصصين في هذا النوع من العمل ورسام ومصور مزود بنوع من الكاميرات الحديثة وأفلام أبيض وأسود وملونة .

٣ — الاستعانة بالأجهزة الملاحية البحرية والتي لها مقدرة على تحديد المواقع الأثرية وخاصة إذا كانت مثبتة على الشاطئ حيث يصل مداها في بعض الأحيان حوالى ٤٥٠ ك . م ويمكن استخدامها عن طريق المؤسسات الملاحية التجارية .

1- E. Livingotn, Techniques used in Archaeological Field Surveys, London, 1970

(انظر لوحة رقم ١٢)

٤ — يستحسن أن يكون رجال الآثار المشتركون في المسح الأثرى من تخصصات أثرية مختلفة مثل آثار ما قبل التاريخ والعصور الحجرية — العصر الفرعوني — العصر اليوناني الروماني والعصر الإسلامي كذلك بعض المتخصصين في اللغات والكتابات القديمة .

٥ — كذلك إذا أمكن أن يشازك أو يساعد البعثة بين الحين والحين متخصص في علم البيئات القديمة ، وعلم الكائنات الحية وعلم النباتات القديمة على ضوء احتياج البعثة .

النشر العلمي :

إذا كانت المنطقة المراد عمل مسح أثرى بها مساحتها صغيرة ولا تزيد على بضعة كيلو مترات ففى أغلب الأحيان تقوم بعثة الحفر نفسها بالمسح الأثرى والذي يعتبر مقدمة هامة ومفيدة لعملها أثناء الحفر والتنقيب ، وغالبا ما تقوم هذه البعثة بنشر ما توصلت إليه من نتائج أثناء قيامها بعملية المسح الأثرى مع نتائج أعمال الحفر والتنقيب الذي أشرفت عليه أو في بعض الأحيان منفصلا عن تقريرها الأثرى . أما إذا كان برنامج المسح الأثرى ذا مدى طويل ويتطلب مداسم متعددة نظرا لكبر المساحة المراد العمل فيها فان نجاح هذا العمل يعتمد على سرعة ومرونة التحليل العلمي والنشر العلمي للنتائج التي توصلت إليها البعثة أولا بأول حيث إن العمل مرتبط بما تم التوصل اليه من نتائج فيما تم انجازه من أعمال لأن حلفه العمل بالمسح الأثرى تكاد تكون متواصلة .

وأخيرا أود أن أذكر هنا أن المسح الأثرى شيء ضروري بل
ولا بد من القيام به قبل البدء في أية أعمال حفر وتنقيب لأن هذا
عامل هام ومفيد علميا وأثريا لرجال الآثار .

الفصل السادس

الوسائل الحديثة للتنقيب عن الآثار

إن عملية التنقيب عن الآثار هي المرحلة الرئيسية في مضمار البحث الأثري ومما لا ريب فيه أن القول المأثور (معول الحفار هو عماد علم الآثار) فيه شيء كثير من الحقيقة ، فأعمال الحفر والتنقيب الأثرية تلعب دورا كبيرا في الكشف عن الدلائل المادية لما خلفه الإنسان في الماضي^(١) .

ونستطيع أن نقول إن العمل الأثري بالحفر والتنقيب سيظل في معظم جوانبه معتمدا على المهارة اليدوية والعين المتخصصة والاستنتاج الذكي ، مستعينا في كل هذا بأدوات يدوية بسيطة .

لكن الواجب يحتم علينا كرجال آثار أن نستفيد من كل ما استجد ويستجد من معلومات ومبتكرات تكنولوجيا تساعد

1— I. Cornwall, Soil science and archaeology, London, 1958.
General Organization of the Arab World
المنظمة العامة للعرب

العمل في الحقل الأثرى وتسهل إنجازه في وقت أسرع وتضيف له معلومات جديدة^(١) .

منذ أن نشأ علم الآثار وبدأ الوعي الأثرى في الانتشار وخاصة في أوروبا ، اتجه علماء الآثار إلى العلم ليقدم لهم العون في دراسة وفحص ما خلفه لنا أسلافنا من تراث أثرى ، بحيث يستطيع رجال الآثار وعلماء التاريخ الحصول على صورة كاملة من كل أثر عثر عليه يمكنهم من تسجيل حلقات التطور الحضارى .

لقد قدم العلم ولا يزال يقدم خدماته المتعددة لحل الكثير من المسائل الأثرية والحضارية ويزيد معلوماتنا عن حياة الإنسان في الماضى ، نشأته وتطوره ، وصناعاته ، وحرفه ، وعلاقاته التجارية والثقافية ، بل إنه أيضا يضع أيدينا على أمراضه ووسائله البيئية لعلاجها ، والظروف الجوية التى عاش خلالها ، كل هذا يمكن الحصول عليه من دراسة ما خلفه وراءه في معابده ومقابرهم ومراكز إقامته من مدن وقرى لا من الأشياء نفسها التى خلفها وراءه ، وهذه ميزة من مميزات الدراسة العلمية للآثار^(٢) .

لقد كان الباحثون عن الآثار يعتمدون كما قلنا اعتمادا كليا على أعمال الحفر اليدوى مع ما فيه من مشقة ومشاكل أثناء

1- L.T. Dolphin A Hassan, Electromagnetic sounder expesiments at the pyramids of Giza, cairo 1975
2- Hodges Technology in the ancient World London, 1970; Aitken, Physics and Archaeology, London 1961,

الكشف عن الآثار المدفونة في باطن الأرض ، اتجه بعض الأثريين الآن إلى العلم الحديث ليساعدهم ويسهل عملهم في الكشف عما في باطن الأرض بالطرق العلمية ، ونتج عن هذا توفير للجهد والمال في حفر أماكن خالية من الآثار ، وركزوا جهودهم على الأماكن التي تدل الأجهزة العلمية على إمكانية وجود آثار فيها⁽¹⁾ وكثيرا ما يحدث أن يعثر رجال الآثار على مقابر أو قطع أثرية ليست بها معالم كافية تدل على عمرها ، أو حتى على العصر الذي صنعت فيه ، فاتجهت أنظارهم إلى العلم ووجهوا إليه النداء ، وأجابهم العلم وأمكن له أن يبتكر طرقا مختلفة لتحديد عمر الأثر وتركيباته الطبيعية .

فإذا أعطينا أحد العلماء قطعة من أثر مصنوع من النحاس وقام بفحصها بالميكروسكوب المعدني يستطيع أن يكشف لنا هل هذا الأثر شكل بطرق النحاس الصلب في درجة الحرارة العادية . أو بطرق النحاس على الساخن ، أو بصب النحاس المنصهر في قالب .

وإذا حللت مادة هذا الفلز القديم تحليلا كيميائيا دقيقاً ، فقد نستطيع الوصول إلى التعرف على العناصر النادرة وتقدير نسبتها بالاستدلال على المصادر الأصلية لخامات هذا الفلز ، وهذا يساعد على معرفة الصلات التجارية بين الشعوب بعضها البعض ، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة نذكر منها :

I- A Hassan, Neue foremen der Kooperation zwischeh Agypt olgie und Naturwissehs-
chaft, in (ASAE 63) 1979.

١ — أن حجر الأوبسيديان لا يوجد في مصر ، ومع هذا استخدم هذا النوع من الأحجار منذ عصر ما قبل الأسرات ٤٠٠٠ ق م في عمل رؤوس حراب وكذلك استعمال التمام والخرز والجعارين وبعض الأواني الصغيرة وكذلك في تركيبات عيون التماثيل في كل عصور التاريخ الفرعوني وبالبحث العلمي اتضح أن هذا الحجر جلب من الحبشة وأن هناك علاقات تجارية بين مصر والحبشة منذ عصور ما قبل التاريخ .

ولقد قال المؤرخ اليوناني دجودور الصقلي يصف هذا الحجر : (.. ثم يأخذ شخص يسمى بالقاطع حجرا أثيوبيا ويقطع به اللحم طبقا للقانون ثم يجرى هاربا) . وقال ذلك وهو يصف عملية التحنيط واستخراج بعض أجزاء المعدة من الجسم .

٢ — عثر في قصر الفرعون إخناتون ١٤٦٠ ق م بمدينة تل العمارنة بمصر الوسطى على بعض أوانٍ فخارية بفحصها اتضح أنها صنعت في إحدى جزر البليبونيز وأنه شبيه بذلك الفخار المزخرف الذي عثر عليه في جزيرة قبرص .

وأود أن أذكر هنا حقيقة هامة أن العلوم الطبيعية تقدم الخدمات التي تساعد في تقديم الخدمات الأثرية وفي المقابل يقدم علم الآثار خدماته أيضا لهذه العلوم^(١) .

1- S Hodges, Op. Cit, and Aitken, op. cit Brotdwell, Science In Archaeology, London, 1960

نحن نعلم أن كل هذه العلوم إنما تبحث عن أصولها وعلم الآثار يقدم لها العون للحصول على ذلك ، بل أكثر من هذا يقدم لها المواد العضوية القديمة التي ساعدت على سبيل المثال عالماً مثل « ليبى » أن يبتكر طريقة التأريخ بالكربون المشع ، ولولا هذه العينات لما أمكن تقدير هذه القيمة بدقة . كذلك لولا احتفاظ الفخار القديم ببعض الخواص المغناطيسية للأرض أثناء الحرق لما أمكن معرفة كنه وقيمة التغيرات التي حدثت في المجال المغناطيسى للأرض على مدى العصور .

إذن فالتعاون بين علم الآثار والعلوم الطبيعية إنما ينطوى على مصلحة متبادلة ونفع عظيم لكل فروع العلم وأمر ضرورى لتقدم البحوث العلمية في كل المجالات .

ومن الأشياء الحديثة لاستخدامات العلوم الطبيعية في الميدان الأثرى استخدام الوسائل التنبؤية الحديثة في التنقيب والكشف عن الآثار ، أى الكشف عما في باطن الأرض من ثروات وكنوز دون أن يقوم العالم الأثرى بالحفر فيها .

وإن العلم قد لجأ منذ أواخر القرن الماضى إلى توجيه بحوثه ودراساته الى الأمور غير المحسوسة أو الملموسة مثل الموجات الكهرومغناطيسية والإشعاعات والاستفادة منها تطبيقياً ، ولقد توصل إلى كثير من إنجازاته واختراعاته عن طريقها وبذلك بدا للإنسان أن بعض النظريات التي كانت تبدوله من قبل غير

معقولة بل وتعتبر ضربا من السحر والشعوذة ، أصبحت الآن معقولة سهلة التصديق والتحقيق .

ومن أهم الأمثلة على ذلك الأشعة السينية والتي تكشف عما في داخل جسم الإنسان من مواد غريبة أو إصابات ، كذلك استخدام العلماء الوسائل العلمية المختلفة سواء كانت فيزيائية أو كيميائية أو جيولوجية للكشف عما في باطن الأرض من مواد ، وخاصة البحث عن البترول .

لقد استغل العلماء بعض هذه الأساليب العلمية لاستخدامات العلم الحديث وتطبيقاته للكشف عن الآثار المدفونة في باطن الأرض أو تحت الماء وطورها لتصلح للتطبيق في ميدان الحقل الأثري^(١) .

أهم الوسائل العلمية التنبؤية للكشف عن الآثار :

١ — التصوير الجوى : Air Photography

وتعتمد هذه الطريقة على التعرف على مكان الأثر بواسطة تحديد رسمه الهندسى والأدلة على هذا الرسم هى علامات فى النباتات وعلامات فى التربة ، واختلاف فى الظل وكلها غير ذات معنى عندما يراها الانسان وهو على الأرض لعدم الترابط بينها ، فى حين أنها تترايط فى الصورة المأخوذة من الجو ، مثال ذلك أن وجود مبان أو جدران وخاصة من الطين فى تربة ما تحت النباتات تزيد من نسبة الرطوبة فى الأرض تحتها ، مما يسبب نموها

1- Bruce, Aerial Photography for the archaeologist, 1975; Simmons, Archaeological Photography, 1969.

بسرعة أكبر بالنسبة للمزروعات المجاورة لها والتي ليس تحتها مبانٍ أو جدران ، كذلك فإن لونها يكون مخالفاً لألوان النباتات التي تحيط بها^(١) .

ولقد فطن العلماء العاملون في مجال البحث الأثرى لهذه الظاهرة وأخذوا يبحثون عن أية علامات تدل على حدوث تغيرات في باطن الأرض ، وكثيراً ما كانوا يعثرون على بعض القطع الأثرية تحت هذه النباتات .

ولقد ساعد التصوير الجوى تحديد الرسم الهندسى للمباني والتخطيط العام للموقع الأثرى وفي بعض الأحيان الطرق التي تربط بينها .

ولقد لعب التصوير الجوى دوراً هاماً في التعرف على كثير من الأماكن والمواقع الأثرية أثناء إنقاذ آثار النوبة والتي اشتركنا فيها مع بعثة الآثار الإنجليزية وذلك عام ١٩٦١ .

ونستعمل في التصوير الجوى أفلاماً بالأبيض والأسود أو ملونة كذلك تستخدم مرشحات خاصة للتصوير بالأشعة الزرقاء أو فوق البنفسجية أو تحت الحمراء ، على أن يراعى الوقت المناسب للتصوير وكذلك مراعاة أن يكون التصوير بزوايا مختلفة ، مرة تصويراً رأسياً وأخرى تصويراً مائلاً^(٢) .

1- Deuel, Flights into yesterday, 1969; I. Scollar, Einführung In neue methoden der archaeologischen prospektion, Dusseldorf. 1970

٢ - (انظر لوحة رقم ١٧)

الكشف عن الآثار بالأشعة : X Ray Radiography

إننا نعلم أن التصوير الفوتوجرافي لا يظهر إلا الشكل الخارجى للجسم المصور ولا يمكنه أن يظهر ما بداخله ، لذلك كان اكتشاف الأشعة السينية التى اكتشفت عام ١٨٩٥ ولها القدرة على النفاذ فى الاجسام وقوة هذا النفاذ تتوقف على كثافة الجسم المراد بحثه وإظهار ما بداخله ولقد استخدمت هذه الأشعة فى الميدان الأثرى للكشف عن بعض الطبقات المحتملة وجودها تحت الطبقة السطحية لأثر من الآثار والتى بها نقوش أو لها طبيعة مخالفة للطبقة السطحية الموجودة فوقها .

كذلك فى عام ١٩٧١ طبقت هذه الطريقة لتصوير مومياء الملكة « نجمت » من الأسرة الحادية والعشرين حوالى (١٠٠٠ ق . م) وأظهر التصوير بالأشعة السينية وجود حمران قلب وأربعة تماثيل صغيرة لأولاد حورس الأربعة داخل التجويف الصدرى^(١) .

كذلك استعملت هذه الطريقة على بعض المومياءات الملكيه الأخرى بالمتحف المصرى وعثر بداخل الجسم على بعض الحلى الذهبية .

الكشف بالأشعة الكونية

لعله من عجائب القدر احتواء الكون على جسيمات تسمى ميزونات تصل طاقتها الى ملايين الملايين أو تزيد من الفولت

Harris X Rayning the mummies, 1972, Smith, Egyptian Mum. Mies, 1924.

الإلكترونى ، وهى تسقط بانتظام من الفضاء الخارجى على سطح الكرة الأرضية - تلك الأشعة اكتشفها فيكتور هس عام ١٩١٢ وسماها أحد علماء الطبيعة باسم « الأشعة الكونية » عام ١٩٢٣ ولقد ظلت هذه الأشعة طوال هذه السنين دون الاستفادة منها فى تطبيق عملى بالنسبة للأثار حتى بداية التفكير فى مشروع التصوير الكونى للأهرامات المصرية بالجيزة^(١) .

استخدمت هذه الطريقة لأول مرة فى تصوير الهرم الثانى من الداخل وهو الذى شيده الملك خفرع من الأسرة الرابعة الفرعونية حوالى ٢٦٠٠ ق . م باستعمال الأشعة الكونية ، لقوة نفاذها الشديد داخل الأجسام ، ذات الكثافة العالية والتى لا تتمكن الأشعة السينية أو أشعة جاما من اختراقها ، والأشعة الكونية كما هو ظاهر من اسمها أشعة تغمى الكون كله وتسقط بصفة منتظمة من الفضاء الخارجى على سطح الكرة الأرضية ، تسقط على كل الأجسام الموجودة فى الطبيعة فى كل الاتجاهات بنفس القوة .

تتكون هذه الأشعة من ميونات ، أى « ميزونات ميو » قدرت بحوالى ١٠,٠٠٠ ميون على المتر المربع فى الثانية . ولهذه الجسيمات قوة خارقة للنفاذ فى المواد المختلفة غير أن قوة هذه الأشعة تقل تدريجياً كلما توغلت داخل المواد المختلفة .

1- R.C Archibald, the Pyramid and cosmic energy. Aleph enterprises pilaait, col , 1972 , L.u. Alvares, search for hidden chambers in the pyramids, Science vol. 167 p. 832-839 (1970).

(انظر لوحة رقم ٢١)

ويمكن تقدير كمية الأشعة الكونية النافذة في الاتجاهات المختلفة بجهاز يسمى غرفة الشرارة Spark Chamber وهو جهاز يتولد فيه الشرار بين زوجين من الألواح المعدنية كلما مرت بين لوحيه إحدى جسيمات الأشعة الكونية النافذة .

وعلى هذا الأساس اعتمدت الطريقة التي اشترك في تنفيذها معمل لورانس للإشعاعات بجامعة كاليفورنيا في بيركلي بالولايات المتحدة الأمريكية ، وقسم الطبيعة بكلية علوم جامعة عين شمس ، والهيئة العامة للآثار المصرية بالقاهرة^(١) .

فاذا كانت في الهرم ممرات أو حجرات غير معروفة لنا حتى الآن ، فإن سمك الحجر الذى ستمر فيه الأشعة الكونية في الاتجاهات التي قد توجد فيها ، سيكون أقل من سمك الحجر في الاتجاهات الأخرى الصماء ، ومن ثم تكون كمية الأشعة الكونية التي تمكنت من النفاذ الى حجرة الدفن في الاتجاهات التي بها الحجرات أو الممرات ، اكبر من كمياتها في الاتجاهات الأخرى ، وبعد معرفة الاتجاه الذى توجد فيه هذه الممرات أو الحجرات ، يمكن تغيير وضع غرفة الشرارة لتقدير بعدها عن حجرة الدفن في هذا الاتجاه .

ولذلك فقد وضعت في حجرة الدفن بهرم الملك خفرع باني الهرم الثانى بالجيزة غرفة الشرارة ، وسجلت الشرارات التي تولدت فيها على شريط تسجيل مغناطيسى ، وترجمت هذه

١ - لقد كان مؤلف هذا الكتاب اول اثرى مصرى يعمل في حقل الحفر والتنقيب ويشترك في هذا المشروع الذى هو بداية العلاقة بين العلم والآثار انظر :

A. Hassan, op. cit. p. 79 ff.

المعلومات باستخدام العقل الإلكتروني ، وأمكن الحصول على صورة لداخل الهرم .

وقد دلت هذه الصورة على أمرين :

الأول : أن حجرة الدفن داخل الهرم الثانى لا تقع تماما فى مركز قاعدة الهرم بل إنها تنحرف نحو الشمال الشرقى بحوالى ٢٠ مترا وتتفق هذه النتيجة مع نتيجة المسح العمارى لداخل الهرم وتم نفس الشئ بالنسبة لزوايا الهرم

ثانيا : لم يعثر على أية غرف أو ممرات أو فراغات غير معروفة لنا داخل الهرم وخاصة الثلث العلوى منه ولقد أعلنت هذه النتيجة فى ٣٠ إبريل عام ١٩٦٩ .

وتعتبر هذه النتيجة إيجابية من الوجهة العلمية بالنسبة لصلاحية طريقة استخدام الأشعة الكونية لتصوير الأهرامات دون الإضرار بها . ولما كانت النتائج التى حصلنا عليها لم تصور إلا الثلث العلوى من الهرم ، فقد أعيد إجراء التجربة باستخدام عرفتى شرار متحركتين حتى يمكن تسجيل الأشعة النافذة فى كل الاتجاهات وحتى قاعدة الهرم . ولقد دلت النتائج التى تم تسجيلها على أن الهرم لا يحتوى على أى حجرات أخرى غير التى تم الكشف عنها وهى معروفة لرجال الآثار وقد أعلن أيضا عن هذه النتيجة عام ١٩٧٤^(١)

1- Alvares, op. cit, p. 839

وبهذا تحقق الحلم الذى ظل يراود رجال الآثار منذ فترة طويلة وهو استخدام العلم للكشف عما فى باطن الأرض من ثروات وكنوز دون أن يقوم بالحفر فيها .

التحليل الكيمياءى لعينات التربة : Soil Analysis

هذه الطريقة تصلح لتحديد الأماكن التى كانت يوماً ما أهلة بالسكان أو الأماكن التى استعملت كجبانات لدفن الإنسان أو الحيوان وعوامل الزمن أثرت عليها فضاعت معالمها وأصبحت غير ظاهرة للعيان^(١) .

نحن نعلم أنه إذا ما سكن الإنسان أو الحيوان مكاناً ما ، فإن التركيب الكيمياءى للتربة فى هذا المكان يتغير عن تركيبها فى أماكن أخرى لم يسكنها الإنسان ، وسبب ذلك ما يتخلف عن الإنسان من فضلات ، وما يلقى فيها من نفايات . ولما كانت المخلفات التى يفرزها الإنسان ، أو تفرزها الحيوانات التى تعيش بصحبته غنية بمادة الفوسفات والنيتروجين والكربون ، وكذلك العظام تتألف أساساً من فوسفات الكالسيوم ، فإن هذه المكونات الأربعة وهى الفوسفات والكالسيوم والنيتروجين والكربون وبصفة خاصة الفوسفات ، تزيد بدرجة واضحة فى هذه الأماكن دون غيرها فإذا ما قمنا بتحليل عدة عينات من التربة فى الأماكن المختلفة لتحديد المواقع الغنية فى بهذه العناصر الأربعة معا ، وبالتالي تعين الأماكن التى كانت أهلة بالسكان .

1- Brothwell, digging bones, oxford, 1981; Cornwall, Bones for the archaeologist. London 1961; Limbrey, soil science and archaeology, London 1975.

ويمكن أخذ عينات من أماكن مختلفة وعلى مسافات منتظمة وفي اتجاهين متعامدين حتى نستطيع أن نحدد بصورة تقريبية حدود المنطقة التي سكنها واستعملها الإنسان .

فإذا ما تم ذلك يمكن لرجل الآثار تحديد المنطقة التي يقوم بإجراء أعمال الحفر والتنقيب فيها بدلا من تشتيت جهوده في منطقة شاسعة لا يعرف عنها إلا ظواهرها الأثرية .

فحص حبوب اللقاح : Pollen Analysis

يمكن تحديد أنواع النباتات التي كانت تنمو في العصور القديمة في أى مكان بالفحص الميكروسكوبى لحبوب اللقاح المختلفة في التربة القديمة ، اذ المعروف أن حبوب اللقاح تحتفظ بخصائها في التربة مددا طويلة جدا^(١) .

ونحن نعلم أن عمليات التلقيح في النباتات الزهرية تتم عادة بانتقال حبوب اللقاح بواسطة الطيور أو الحشرات أو الرياح ، وفي حالة انتقال حبوب اللقاح بواسطة الرياح فان الزهور المنتجة لهذه الحبوب تنتج كميات كبيرة منها لضمان وصول إحدى هذه الحبوب إلى زهرة أنثى وذلك قبل أن يسقط معظمها على الأرض دون أن يكون له نصيب في عملية الإخصاب .

والجزء الأكبر مما سقط على الأرض من حبوب اللقاح يتحلل ولا يبقى منه شيء ، غير أنه في حالة سقوط بعضها في وسط تربة

1- Dimbleby, pollen analysis, London 1953; Moore, illustrated guide to POLLEN ANALYSIS, London 1978

صالحة لبقائها مثل الطين الندى أو تربة حمضية أو فحمية فإنها تتحجر ويمكن بسهولة التعرف عليها تحت الميكروسكوب .

فإذا ثبت من الفحص وجود حبوب اللقاح في التربة وأنها تنتمي لتلك النباتات التي قام الإنسان بزراعتها ، فإن هذا يدل على أن القرية أو المدينة التي سكنها المزارعون قريبة من هذه المنطقة وبالتالي قد تكون مقابرهم أيضا بجوارها أو على بعد قليل منها .

على أن هناك شيئاً هاماً يجب أن يوضع في الاعتبار ألا وهو التأكد من أن التربة الطينية التي عثرفيها على حبوب اللقاح هي تربة أصلية وليست وافدة من منطقة أخرى بعيدة عنها ، إذ كثيراً ما تقوم مياه السيول التي تسقط على المناطق الجبلية بأن تجلب معها من قيعان بعض البحيرات والوديان الجافة تربة طينية مترسبة أختلط بها في بعض الأحيان حبوب اللقاح .

ولحبوب اللقاح فوائد أخرى في الحقل الأثرى إذ عن طريقها يمكن :

١ — معرفة النباتات التي نمت في منطقة التربة الطينية وهذا يساعد على معرفة الأحوال الجوية التي كانت سائدة في هذا الوقت^(١) ، فمثلاً إذا عثرفنا على بعض حبوب اللقاح لنبات الصنوبر يدل هذا على أن الجو إبان هذه الفترة في هذا المكان كان بارداً ، وإذا ما عثرفنا على حبوب لقاح لنبات مثل أشجار السنط

· Dimbleby. plants and archaeology, London, 1978.

والبسوط والجميز واللبخ دل هذا على أن الجو كان دافئاً
مما ساعد على نمو هذه الأشجار في هذا المكان .

الطرق الجيوفيزيائية^(١) :

تعتمد هذه الطريقة على استخدام نظريات علم الفيزياء
للكشف عن التركيبات الجيولوجية في القشرة الأرضية ، مهما
كان سمكها للتنبؤ عما هو في باطن الأرض من ثروات ، ثم طورت
هذه الطريقة بحيث يمكن تطبيقها للكشف عما هو في باطن
الأرض من كنوز أثرية . وأهم هذه الطرق التي استخدمت
بنجاح في الحقل الأثرى طريقتان :

١ - تقدير مقاومة التربة للتيار الكهربائي :

هذه أول وسيلة جيوفيزيائية استخدمت للكشف عن الآثار
المطمورة في باطن الأرض ويرجع أول تاريخ لاستخدامها منذ عام
١٩٤٦ .

تتفاوت المواد كثيراً في مقاومتها لمرور التيار الكهربائي
فمقاومة الصخور الصلبة كالجرانيت والبازلت ، أعلى من مقاومة
الأحجار الرسوبية قليلة الصلابة مثل الحجر الجيري والحجر
الرملي ، ومقاومة هذه الأحجار بدورها أعلى من مقاومة التربة
الطينية ، خاصة إذا كانت نسبة الرطوبة بالتربة مرتفعة . فإذا
كانت التربة كلها من نوع واحد وجد أن مقاومتها الكهربائية في
الأمكان المختلفة متساوية ، أما إذا وجدت فيها آثار من نوع

1- Altken, physics and archaeology,1961; Tite, Method of physical Examination in
archaeology, London, 1972

مختلف عن مادة التربة في بعض الأماكن فإن المقاومة الكهربائية في هذه الأماكن تكون مختلفة .

ولذلك فإن تقدير مقاومة الأجزاء المختلفة في المناطق الأثرية يبين بسهولة أماكن الجدران الحجرية في المناطق الطينية ، ويبين أماكن الخنادق أو المباني الطينية في الأراضي الصحراوية ، ومن ثم يمكن تحديد مواقع المباني الأثرية بالمنطقة .

وقد جرت تعديلات حديثة على هذه الطريقة بل وما زالت الأبحاث مستمرة لمزيد من التعديل والتطوير للتغلب على بعض الصعاب التي واجهتها ومن أهمها اختلاف الرطوبة في المواقع المختلفة من التربة ، وكذلك شيوع استخدام حديد التسليح ومد أنابيب الحديد من مكان لآخر مما جعل النتائج غير دقيقة في تقدير المقاومة الكهربائية تحت نفس الظروف كذلك تجرى البحوث على نفس الأسس لتجنب العوامل الخارجية ، وحتى تكون النتائج معبرة تعبيراً صحيحاً عما تخفيه التربة من مبان أثرية .

٢ - قياس قوة المجال المغناطيسي^(١) :

Magnetic Surveying

تعتبر هذه الطريقة من أفضل الطرق المستخدمة للكشف عن الآثار المغمورة في باطن الأرض وذلك لبساطتها وسرعة نتائجها وكذلك سرعة تفسير هذه النتائج علمياً .

1- Weaver, magnetic clues help date the past In: (Ngrn n.5) 1967; Schollar, magnetic methods of archaeology, roy. soc. london vol. a269. 1970

وتعتمد هذه الطريقة على قياس المجال المغناطيسي الأرضي في المنطقة التي يجري فيها التنقيب بجهاز يسمى « الماجنتومتر » فإذا كانت التربة خالية من أية آثار ولها طبيعة واحدة في كل مكان فإن القراءات التي يسجلها « الماجنتومتر » (تكون واحدة في كل أجزاء هذه المنطقة ، أما إذا وجدت في التربة أجسام مطمورة مختلفة في طبيعتها عن طبيعة التربة ولها تأثير مغناطيسي ، مثل الفخار ، والأفران المشيدة بالطين المحروق والحديد وكذلك المباني المشيدة بالطوب المحروق ، فإن القراءات التي يسجلها « الماجنتومتر » تكون غير عادية .

ويجرى العمل في حالة استخدام هذه الطريقة بتقسيم المنطقة إلى مربعات وقياس المجال المغناطيسي في نقط التقاطع وتسجيل النتائج على الورق ومن النتائج غير العادية وأماكن وجودها أو امتدادها بالمنطقة ، يمكن في معظم الأحيان تحديد مكان الأثر وشكله العام .

وعلاوة على أن هذه الطريقة تتميز بسرعتها وسهولة إجرائها فإنها أيضا تكشف عن آثار على أعماق كبيرة قد تصل إلى حوالي ٦ أمتار في باطن الأرض ، كما أنها تعطي نتائج دقيقة إلى حد كبير^(١)

الكشف عن الآثار المغمورة تحت الماء :

Survey Techniques in under Water Archeology

لم تقتصر أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار على الأرض

1- Dolphon, Hassan, Electromagnetic Sounder Experiments at the Pyramids, 1970.

اليابسة بل أيضا منذ فترة طويلة جرت محاولات عدة للبحث عن الآثار في قاع البحار والأنهار والبحيرات بل والمحيطات في بعض الأحوال^(١) .

نحن نعلم وخاصة في بلاد الشرق القديم أن معظم هذه البلاد وخاصة مصر وسورية وبلاد ما بين النهرين وفينيقيًا كانت على صلات تجارية وحضارية مع كثير من الجزر التي تقع داخل البحر المتوسط وكذلك بلاد اليونان فضلا عن علاقة هذه البلاد ببعضها البعض .

ونحن نعلم أيضا أن العوامل الجوية كانت وما زالت تغرق الكثير من هذه السفن أو الحروب أو القرصنة الحربية وكثير من هذه السفن كانت تحمل على ظهرها منتجاتها وفنونها وأسلحتها وكذلك بعض تماثيل لآلهتها .

هذا فضلا عن الموانئ القديمة التي غمرت الآن تحت مياه البحر . ومن أمثلة ذلك مدينة الإسكندرية والتي عثر داخل مياه البحر على الكثير من التماثيل والآثار اليونانية الرومانية ، والآن هناك بعثة فرنسية مصرية تبحث عن أسطول نابليون الغارق في مياه خليج أبى قير أثناء الحرب بين نابليون والإنجليز .

كذلك تقوم بعثات في جزيرة كريت^(٢) بالكشف عن الميناء القديم وعلاقة هذه الجزيرة ببلاد الشرق القديم من واقع ما عثر ويعثر عليه في موانئها القديمة الغارقة تحت سطح البحر والتي

1- Hall, survey techniques in underwater archaeology, London 1970.

2- B. Rohland, the discoveries of crete, london 1907

عثر فيها على آلاف من الأواني الفخارية المصرية والفينيقية بها كثير من المنتجات المحلية لكل من البلدين في ذلك الوقت .

لقد أثبتت التجارب العلمية أن طوبوغرافية الأرض اليابسة يمكن أن تساعد الباحث الأثرى في تمييز المناطق ذات الأهمية الأثرية وهذه غالبا ما تكون غير مستوية وذات أشكال خاصة تميزها عن المناطق المجاورة العادية وطبعا هذه الظواهر تساعد على تحديد الأماكن والمواقع التي يجب على المنقب أن يبدأ الحفر فيها .

على أن هذا ليس هو الحال دائما بالنسبة للباحث عن الآثار تحت الماء حيث تقابله العديد من المشاكل ، ومن أهمها عملية الغوص في أعماق بعيدة مع أجهزة الكشف ، هذا بالإضافة إلى ما قد يقابله من مناطق صخرية وعرة ، وغالبا ما توجد الآثار بجوار أو فوق هذه المناطق الصخرية وهذا يعرض هذه الآثار لسرعة التدمير أو تغير معالمها الأثرية بسبب تعرضها للأملاح والماء والنباتات البحرية لمدة طويلة وتوجد ثلاث وسائل يمكن الاعتماد عليها في الكشف المبدئى عن الآثار تحت الماء وهى :

١ - نحن نعرف أن مناطق صيد الإسفنج كثيرا ما تعج بالغطاسين سواء المحترفين منهم أو الهواة لصيد الإسفنج ، وهؤلاء يمكنهم المساعدة في القيام بمسح المناطق التي يغطسون فيها وخاصة أن رحلاتهم إلى القاع تتكرر كثيرا ويمكن بالعين المجردة إعطاء فكرة مبدئية عن مشاهداتهم الشخصية عما لاحظوه .

٢ - كثيرا ما يفاجأ صائدو الأسماك وهم يقومون بأعمال الصيد بشباكهم الضخمة أن الشبكة ليس بها أسماك فقط بل بعض الاواني الفخارية^(١) أو البرونزية أو بعض الأشياء الأثرية ، وهذا أيضا يحدد بطريق الصدفة أحد المواقع الأثرية تحت الماء الواجب إجراء حفائر أثرية بها .

٣ - قيام بعض الجهود الفردية الأثرية بعمليات بحث في قاع البحر بطريقة غير مدروسة رغبة في الكشف عن آثار ولكن مثل هذا العمل نتائجه غير مضمونة ويحمل روح المغامرة أكثر منه عملاً علمياً .

كل هذا نتج عنه الاتجاه في السنوات الأخيرة لاستخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة للكشف عن وجود آثار في قاع البحر ولقد بلغ من دقة هذه الأجهزة أنها ليست فقط تحدد مكان الأثر بل مدى انغماسه في طين القاع .

وهناك أنواع ثلاثة من الأجهزة يمكن استخدامها في الكشف عن الآثار الغارقة في قاع البحار سنذكر أسماءها دون التعرض لطريقة عملها حيث إن هذا يحتاج الى متخصصين في علوم الطبيعة والفيزياء وغيرها .

الأول : الأجهزة الصوتية وتعتمد على الموجات الصوتية .

الثاني : أجهزة القياس المغناطيسية (مجناتومتر) .

الثالث : أجهزة الكشف عن المعادن - وهي تساعد في

الكشف عن الآثار المصنوعة من المعادن والغارقة في قاع البحر .

١ - (انظر لوحة رقم ٥ ، ٦ ، ٧) .

الفصل السابع

استخدام العلم لتقدير عمر الآثار

أخذ علم الآثار في الآونة الأخيرة يعتمد كثيرا على مجموعة من علوم الطبيعة والكيمياء والفيزياء في معالجة وتحليل المواد والقطع الأثرية التي يتم اكتشافها^(١) .

إن أغلب المتاحف الآن وهيئات الآثار أصبحت تلحق بها معملا متخصصا يقوم على علاج الآثار المختلفة وكذلك توجد بهذه المعامل كاميرات التصوير الإشعاعي وهذه تساعد على معرفة مكونات وحدود الأثر الأصلية بعيدا عما يعلق به من صدا وتأثيرات خارجية بسبب العوامل الجوية وغيرها .

كذلك احتوت المعامل على أجهزة لها مقدرة على تحليل المواد العضوية للتعرف على أزمانها وبالتالي تاريخ الموقع أو الطبقة أو المبنى الذي عثر عليها أو جاءت منه .

1- Flemnig, dating in archaeology, London 1976. Michles, Dating methods in archaeology, new york, 1973.

ولما كان هذا الموضوع يحتاج إلى متخصص في العلوم الطبيعية وكذلك إلى تفصيلات علمية ليس هذا مكانها بل ويحتاج إلى بحث خاص قائم بنفسه لذلك سوف نحاول أن نضرب بعض الأمثلة فقط محاولين البعد ما أمكن لذلك سبيلا عن المصطلحات العلمية والرياضية المعقدة .

١ — تقدير عمر الآثار بطريقة كربون ١٤ أو الكربون المشع^(١) : Radiocarbon Dating

وتحليل الكربون ١٤ المشع يعتمد على تحليل مواد عضوية اكتشفت أثناء التنقيب لمعرفة مقدار ما تبقى من اشعاع كربوني فيها بعد موت تلك المادة العضوية خلال العصور القديمة . والكربون ١٤ هذا ينتج من تفاعل الأشعة الكونية مع النيتروجين في طبقات الغلاف الجوى للأرض وتأخذه النباتات من غاز ثانى أكسيد الكربون حيث يدخل أجسام الحيوانات الحية عن طريق الاستهلاك النباتى إذ هى تتغذى على النبات ، ويبقى محافظا على كميته ما دام الكائن العضوى حيا .

وعندما يموت الجسم الحى سواء كان نباتا أو حيوانا ، يبدأ الكربون ١٤ يفقد إلكترونات على هيئة أشعة ويتحول إلى نيتروجين مرة أخرى ومن ثم تتناقص كمية الكربون ١٤ بمرور الزمن .

1- Lynn and Gray, carbon 14 and other science methods that Date he past, 1961; Berger, ancient Epyptian radiocarbon chronology, London 1970; libby, Hadlocarbon dating, chicago, 1952, p.2.

ولما كانت فترة نصف العمر للكربون ١٤ تبلغ ٥٧٣٠ سنة تقريبا ، فإنه يمكن قياس قوة إشعاع المواد العضوية التي يعثر عليها في المقابر ، مثل الخشب والقش ، والبوص والجلود والأصداف والقماش ، والفحم والخبز ، والحبوب وغير ذلك مما يعثر عليه وله هذه الخاصية ، ومن هذه القوة الإشعاعية يمكن تقدير العمر باستخدام معادلة رياضية خاصة .

هذا وعلى عالم الآثار عند جمعه لهذه المواد العضوية أن يبذل قصارى جهده خشية تلوثها وتعرضها طويلا للمؤثرات الطبيعية لأن ذلك يؤثر عليها عند تحليلها بطريقة كربون ١٤ المشعة ويسبب قراءات خاطئة ويعطى نتائج غير دقيقة .

تقدير العمر بطريقة الحلقات السنوية للأشجار Tree Ring Dating

هذه الطريقة تعتمد على عدد الحلقات السنوية في الأشجار المعمرة^(١) . فمن المعروف علميا أنه تتكون في سيقان هذه الأشجار المعمرة حلقة واحدة في كل سنة من عمرها ، فإذا كان في الشجرة مثلا خمسون حلقة كان عمرها ٥٠ سنة وهكذا .

ومن المعروف أيضا أن المناخ السائد في كل منطقة ينعكس تأثيره على الحلقات ، فإذا كان الجو مطيرا معتدلا كانت الحلقات كبيرة ، وإذا كان الجو جافا حارا كانت الحلقة ضيقة وهكذا .

1- Mike; Tree- ringdating and archaeology London 1981 .

وبواسطة مقارنة شكل هذه الحلقات ذات الشكل الواحد ،
والترتيب الواحد مع العينات المعروفة التاريخ ، أمكن تقدير عمر
العينات الخشبية .

ولما كانت هذه الطريقة نتائجها مضبوطة الى حد بعيد فإن
استعمالها يساعد في بعض الأحيان على تصحيح بعض الأخطاء
التي تنتج من كربون ١٤ المشع .

تقدير العمر عن طريق العظام (١) :

وتعتمد هذه الطريقة على إجراء تحليلات كيميائية على
العظام لمعرفة مقدار « الفلورين » فيها إذ أن العظام المغمورة في
باطن الأرض تتعرض عادة لتفاعلات كيميائية مع معادن التربة
ورطوبتها مما يسبب تحجرا فيها إذ تضاف المواد المعدنية إليها
أو تحل محلها تدريجيا ويتم التحجر بواسطة مادة الفلورين
الموجودة في المياه الجوفية إذ تتفاعل هذه المادة مع بلورات
« هيدروكسيد الأبتايت » الموجودة في العظام وتكون مادة
« الفلورا ابتايت » التي تتأثر بالتآكل أو الامتصاص أو التفاعل
مع معدن آخر .

هذا والعظام المدفونة في الأرض مدة طويلة من الزمن
تحتوى على نسبة أعلى من « الفلورا - ابتايت » اذا ما قورنت مع
عظام مدفونة منذ زمن قصير .

1- Chplin, the study of animal Bones from archaeological sites, London 1971.
Cornwall, Bones for the archaeologist, London 1956

ولا بد أن نشير هنا بأن علم الآثار مستمر في الاستفادة مما تقدمه التكنولوجيا الحديثة من وسائل مثل تقدير عمر الفخار بالتألق الحرارى وكذلك بالطريقة المغناطيسية ، علاوة على تغذية أجهزة الحاسب الإلكتروني بالمواد والمعلومات والتواريخ المطلوبة ليستعين بها رجل الآثار في استخلاص نتائج ومقارنات سريعة عن القضايا والمشاكل الأثرية التي يريد علاجها أو الوصول الى نتائج فيها ومنها على سبيل المثال دراسة الكتابات القديمة والتوصل بسرعة الى حل كثير من مشاكلها ، ومن المعاهد التي تستعمل هذا الأسلوب ، جامعة بيركلى بكاليفورنيا إذ هناك مشروع استعمال الكمبيوتر في دراسة اللغة المصرية القديمة وكذلك بعض معاهد ألمانيا الغربية .

الفصل الثامن

صيانة وحفظ الآثار بالوسائل العلمية الحديثة (١)

منذ فترة طويلة والعلوم الطبيعية تساعد على ترميم وتنظيف الآثار وتساعد على صيانتها ، فمثلا تنظف المعادن بالأحماض أو القلويات بواسطة الاختزال بالتحليل الكهربائي كذلك إذا أردنا تقوية أثر من الآثار فإننا نستعمل الشمع ليساعد على تقوية هذا الأثر حتى يمكن نقله الى المعمل المعد لعلاجه ، حتى يمكن دراسته وعرضه في متحف من المتاحف ويعتبر هذا الأسلوب في الترميم والصيانة أسلوبا تقليديا عاديا . وخلال السنوات الأخيرة وأمام التقدم الرهيب في خطوات العلم في مجالاته المختلفة تطور أيضا أسلوب علاج وصيانة الآثار .

نحن نعلم أن حالة أثر من الآثار تعتمد على الظروف التي مر بها ، فبعضها ظروف طبيعية مما ينتج عنها أن يظل الأثر في حالة

١ — حسام الدين محمود — تكنولوجيا صيانة وترميم المتاحف الثقافية — القاهرة ١٩٧٩

ممتازة ، ومن أهم الأمثلة على ذلك قبر « توت عنخ آمون » الذى
عثر على آثاره داخل مقبرته سليمة كما وضعها المصريون
القدماء منذ حوالى ٣٥٠٠ سنة ولم تمتد إليها يد اللصوص أو
تتعرض لأية عوامل غير العوامل الطبيعية التى وضعت خلالها
منذ أكثر من ٣٥ قرنا من الزمان كذلك بعض التماثيل للملك
وأمرء وكذلك رسوم ونقوش بعض المقابر ، يهياً لناظرها أن
الفنان أو النحات أو الرسام قد أنهى عمله فيها منذ لحظات كذلك
عثر على مومياء لأحد النبلاء من عصر ما نسميه بالدولة القديمة
٢٥٠٠ ق . م ويدعى « نفر » فى منطقة سقارة يخيل لناظرها
أنها دفنت بالأمس .

وعلى العكس من ذلك هناك آثار مرت بظروف جوية وطبيعية
وبشرية قاسية أو امتدت إليها يد التدمير على يد الحشرات
والحيوانات وكذلك يد الإنسان . ومثل هذه الآثار تحتاج إلى
علاج وصيانة دقيقة وترميم حتى يمكن إعادتها قدر الإمكان إلى
الحالة التى كانت عليها لتؤدى غرضها فنيا وأثريا وعلميا .

على أن مادة الأثر ونوع التلف أو التدمير أو الاعتداء الذى
أصابه تلعب دورا كبيرا فى علاجه علاوة على الطريقة العلمية
المناسبة لهذا الأثر والمتخصص الذى سيتولى هذا العلاج .

والأساليب الحديثة تعتمد على التصوير بالأشعة السينية
والتحليل الكيماوى والفحص الميكروسكوبى ، كذلك اللدائن

المختلفة وخاصة التي تستطيع علاج وتقوية سطوح الآثار المتآكلة والهشة ومن أهمها وأحدثها راتنجات الأيبوكس ، هذا علاوة على ما سبق أن ذكرناه من استعمال العقل الإلكتروني في علاج وترميم الآثار .

خدمات العلم للآثار :

من هذا يرى القارئ لهذه السطور ما للعلم من فوائد جمة ومساعدة جلية لكل ما يعثر عليه من آثار في باطن الأرض بل وما هو قائم منها فوق سطح الأرض كل هذا يتم بطرق منطقية مقبولة ومباركة بواسطة رجال الآثار ، والعلم كان وما زال يكتشف أساليب جديدة ليقدم خدماته ويد العون للآثار في كل الميادين سواء في الكشف عنها دونما مضيعة للوقت وإسراف المال ، يقدر عمر الآثار حتى يطمئن رجل الآثار أن نتائجه أقرب ما تكون الى الصواب ، يصون الأثر ويعالجه حتى يقول كلمته عمن أنتجه ويكون هاديا لكل دارسى الحضارات القديمة كل في تخصصه .

إن العلماء مع زملائهم^(١) رجال الآثار حريصون كل الحرص على اظهار ما خلفه الإنسان من حضارات ، وحريصون

١ — في هذه العجالة وضعت أمام دارسى علم الآثار في الجامعات المتخصصة ، بل وخريجي قسم الآثار ممن يعملون في حقل الآثار وما زالوا في بداية حياتهم العملية خبرة تربو على ٢٥ عاما من أعمال الحفر والتنقيب في أماكن كثيرة (الجيزة — الفيوم — تل العمارنة — البهنسا — أسيوط الكاب — بلاد النوبة وغيرها) . أرجو أن تكون دليل عمل يساعدهم فإن كنت قد ولغقت فالخير أردت وعلى الله قصد السبيل .

أيضا على الحفاظ على هذه الحضارات وهذا التراث العالمى وصيانتته وإظهاره لأن هذا جزء من تراث البشرية يحكى لنا تاريخ حضارتهم التى هى نبراسٌ لكل الأجيال حاضرها ومستقبلها .

علم الآثار والتاريخ :

لم يكن فى العالم القديم قبل عهد اليونان تاريخ بالمعنى المفهوم لنا الآن ولم يظهر إلا فى العصور الحديثة المؤرخون الذين يحاولون أن ينظموا ويفهموا ثم يفسروا ويحللوا نتائج دراستهم .

ولعله من سداد الرأى أن نذكر كلمة هنا عن العلاقة بين الآثار والتاريخ ، وخاصة أن دراسة التاريخ القديم بوجه خاص تعتمد اعتماداً كبيراً على ما يعثر عليه من آثار .

إن الخط الواضح بين علم الآثار والتاريخ غير واضح ، وإننا نعلم أن المعرفة هى حصيلة تتراكم على مر الزمن ويساعد علم الآثار على مدها بالمعلومات ، أما الأفكار والمفاهيم ، والفرضيات نجد أن تطورها متفاوت حسب النمو والتطور فى مختلف ميادين الفكر ، فالتاريخ له أسلوبه الخاص به الناتج عن طبيعة موضوعه ، ألا وهو ماضى الحياة البشرية ، وإن المؤرخ لا يجابه هذا الماضى مباشرة ، بل عن طريق الآثار والنصوص التى خلفها الإنسان ، وأسلوب التاريخ يقوم على تحقيق هذه

المخلفات ونقدها لاستكشاف حقيقة الماضي ، والمؤرخ لا يجابه هذا الماضي مباشرة ، بل عن طريق ما يعثر عليه من آثار ، وكذلك الوثائق التي خلفها الإنسان .

إن مهمة المؤرخ أن يدرس النشاط البشرى على مر العصور ، ولهذا نجد أن المؤرخين يواجهون من التغيير في معطياتهم أكثر مما يواجه غيرهم من علماء الاجتماع مثلاً ، ولذلك يجب على المؤرخ أن يعين ما حدث وأن يتعرف على الوثائق متسلسلة وأن يحلل الروابط بين هذه الوقائع وأن يكتشف كيف ولماذا حدثت على نحو ما .

إن كلمة التاريخ تعنى تحديد الزمن وتعنى أيضاً مجريات الحوادث الماضية ، إنها تطلق على العهد الثابت الذى نؤرخ به مثل التاريخ الميلادى ، وهو أيضاً فرع من فروع المعارف البشرية قوامه التحرى والتحقيق . وكلمة History^(١) فى اللغات الأوروبية أول من أطلقها هو المؤرخ اليونانى الشهير هيرودوت فى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد Historya^(٢) باليونانية وتعنى هذه الكلمة البحث والتحرى عن أحداث الماضى وتسجيلها وتحليلها .

والمؤرخ العربى الشهير ابن خلدون والذى عاش عام ١٤٠٦ م عرف التاريخ فى مقدمته على أنه بحث ونظر وتدقيق

1-Colling wood The idea of History, 1946.

2- G. k. Clark, what is History, London 1930 .

وتمحيص . إننا نعرف أن التاريخ هو سجل الماضي ، سجل الأحداث التي تمت ، إنه دراسة أحوال المجتمعات الماضية ، ونقصد بذلك دراسة تطور الإنسان وما خلفه وراءه من منجزات حضارية ، وما تركته هذه المخلفات الحضارية من تأثير في تطور الحضارات المعاصرة .

التاريخ أيضاً يساعد على معرفة تطور الإنسان والقوانين التي تتحكم في تطور المجتمعات ، كيف نشأت ونمت وتطورت وازدهرت ثم تدهورت ووصلت إلى مرحلة الانحلال ، التاريخ يسعى جاهداً لاكتشاف القواعد العامة والقوانين وكذلك قوانين المجتمعات .

نحن نعرف أن الحاضر وليد الماضي والمستقبل وليد الحاضر ودراسة التاريخ تبحث في أحداث الماضي ومخلفاته لنعرف منها حاضرنا الذي نعيش فيه كيف وصلنا إليه ، ومن أقرب العلوم تشابهاً مع التاريخ الجيولوجيا لأنها هي الأخرى تبحث في الظواهر الطبيعية للأرض لمعرفة تكوين الظواهر الجيولوجية الحالية .

نحن نعلم أن المؤرخ لا يستطيع أن يجرى تجربة معملية كما في العلوم الطبيعية ، كذلك لا يستطيع أن يعتمد على الملاحظة والاستدلال العقلي المجرد كما في العلوم الرياضية ، بل إنه يبحث فيما خلفه الإنسان من آثار لمعرفة أحداث الماضي ،

وسواء كانت هذه الآثار مادية أو مسجلة كتابة فهي مصادره الأولى ومادته الأساسية .

إن أهم هدف من أهداف التاريخ « اعزف نفسك مضافاً إلى الجنس البشرى »

إن علم الآثار منذ أن ظهر في الحضارة الحديثة خلال منتصف القرن الماضي كما سبق أن ذكرنا ، وضع في متناول أيدي المؤرخين والباحثين في التاريخ مادة غزيرة تمكنهم من جمع مادتهم العلمية وخاصة ما يتعلق بالحضارات القديمة مثل حضارات مصر والعراق والهند والصين وغيرها .

لقد كانت الرواية الشفهية هي الوسيلة الوحيدة في تناقل الأخبار والحوادث التي حدثت في الماضي ، قبل أن يعرف الإنسان الكتابة ، وقبل أن يبدأ في تدوين أحداث الماضي خلال الحضارات القديمة التي نشأت ونمت في مصر الفرعونية وبلاد ما بين النهرين خلال الألف الثالث قبل الميلاد .

إن اختراع الإنسان للكتابة هو من أهم وأعظم منجزات العصور القديمة ، لأنه عندما اخترع الإنسان الحروف بأنواعها المختلفة والتي منها نشأت وتكونت اللغة وبواسطتها بدأ يسجل أفكاره وخبرته وتجاربه وفنونه وصناعاته .

كذلك كانت اللغة وسيلة للتفاهم بين أفراد الشعب الواحد مما يساعد على نمو وتطور قدراته ومهاراته المادية والعقلية ،

ليس هذا فقط بل كانت سبباً في أن يحفظ كل أفكاره ومعتقداته
والتي وصلت إلينا ومنها عرفنا الكثير عن خبراته من خلال
الأجيال التي تعاقبت بعضها البعض .

وليس معنى اختراع الإنسان القديم للكتابة أنه أهمل
الرواية الشفوية والتي تتحدث عن أحداث الماضي ولكنه ظل
يمارسها في أغلب بلاد العالم القديم حتى بعد اختراع الكتابة
واللغة والتدوين .

ونحن نعرف أن الكثير من القصص التاريخية والملاحم
الكبرى والأساطير التاريخية القديمة ، بل وبعض الحديث منها
كانت متداولة عن طريق الرواية الشفهية بين القصاصين والرواة
والمنشدين والشعراء وبعض هذه القصص وخاصة الملاحم منها
ظلت لسنوات طويلة تعتمد على الرواية الشفوية قبل تسجيلها ،
ومنها على سبيل المثال لا الحصر أسطورة إيزيس وأوزوريس ،
وملحمة جلجامش والإلياذة والأوديسة وكذلك قصص ألف ليلة
وليلة وأبوزيد الهلالي والزناتي خليفة وحروب الهلاليين وغيرها
من أعمال البطولة والتضحية .

على أن أقدم مؤرخ وجغرافي يوناني قديم هو « هيكاتيوس »
من أهل مليطة وقد ولد في أيونيا عام ٥٤٠ ق . م وهذا المؤرخ الأول
كتب عن أصل اليونان وأنسابهم وهجراتهم وكان معروفاً بحبه في
للسفر والتنقل بين البلدان .

ويعتبر « هيكاته » أقدم مؤرخ وجغرافي إبان الحضارة اليونانية ويعزى إليه رسم أقدم خريطة للأرض ، ولو أن معظم كتاباته الأصلية لم تصل إلينا .

هيرودوت : ٤٨٠ - ٤٢٥ ق م أطلق عليه أبو التاريخ ، ولقد اقتبس الكثير مما كتبه « هيكاته » والموضوع الرئيسى فى تاريخه المشهور هو الحروب بين اليونان وبلاد فارس فى المدة ما بين ٤٩٠ - ٤٨٠ ق . م فى عهد الملكين دارا واكسر كسيوز (XEREXES) علاوة على كثير من المعلومات عن الأمم والشعوب التى زارها ومنها مصر وبلاد العراق وشمال إفريقيا ، ومع أن كثيراً من المعلومات والأخبار التى ذكرها هذا المؤرخ الشهير يشوبها الكثير من الأخطاء والأساطير وكثير منها يعتمد على السماع ، ومع هذا يمكن اعتبارها أول مادة علمية تتناول أحوال وحياة الشعوب ، وكذلك عاداتها وتقاليدها ومن أعظم الأمثلة على ذلك ما ذكره فى مجلده عن مصر وعادات أبنائها ودياناتها وتقاليدها سكانها ونظم الحياة الاجتماعية فيها وآثارها التى زار معظمها ووصفها ، والكثير مما شاهده أو سمعه من مرافقيه فى زيارته .

وعلاوة على المؤرخين اليونان والرومان وغيرهم ممن خلفهم وكتبوا عن التاريخ القديم فهناك الكتب السماوية ، التوراة والإنجيل والقرآن تعتبر من أصدق المصادر لرجل التاريخ فى بعض الموضوعات مثل قصة الطوفان ، وقصة سيدنا يوسف

وموسى والذى روج من مصر ، علاوة على كثير من قصص الأنبياء وترتيب ظهورهم قال الله تعالى فى كتابه الكريم : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وأتينا داود زبوراً » صدق الله العظيم « سورة النساء ١٦٣ » .

كذلك لم يكن عند العرب قبل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من مادة التاريخ إلا ما وصلهم عن طريق الرواية وما حفظ بالذاكرة وخاصة ما كان مشاعاً بينهم من أخبار الجاهلية وأشابهم وقبائلهم ومبانيهم مثل الكعبة الشريفة وقصة سبأ وسد مأرب باليمن .

على أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه جعل الهجرة باعتبارها من أهم الأحداث وأعظمها كحدث فى تاريخ الإسلام والمسلمين « سنة » يُؤرخ بها وهذا يعتبر بداية التاريخ المسجل بالنسبة للإسلام والعرب .

ويعتبر ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) بحق أول من وضع أسس فلسفة التاريخ فنجد كتابه « العبر » والذى اشتمل على كثير من آرائه فى فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع وغيره من العلوم خاصة ما يعرف باسم مقدمة ابن خلدون ولقد أعجب علماء الغرب بما كتبه ابن خلدون حتى إن بعضهم قال لقد أوتى هذا العالم العربى تصوراً فى فلسفة التاريخ لم يسبقه إليه آخر ويعتبر بحق مؤسس علم التاريخ الحديث ، ومن هؤلاء العلماء

الذين تحدثوا عن ابن خلدون « روجيه جارودى » الذى قال إن ابن خلدون عندما يطرح فى المقدمة مشاكل علمية تاريخية فإنه يسجل سبقاً تاريخياً على كثير من مفكرى عصر النهضة الأوربية مثل « ديكارت ١٥٦٦ - ١٦٥٠) ويكشف عن تماسك فكرى لم يشهد له العالم مثيلاً إلا فى كتاب «الأمير» لماكيافيللى ١٤٦٩ - ١٥٤٧ » ويذكر أن ابن خلدون وضع مفهوم النقد التاريخى إذا ما قارنا تعريف ابن خلدون ومنهجه التاريخى بغيره لأدركنا تقدمه على المؤرخين بما يزيد على أربعة قرون ، فالتاريخ عنده تحليل احضارات وليس مجرد روايات ، ومن هنا يمكن القول إن ابن خلدون هو المؤسس الحقيقى للمفهوم العلمى للتاريخ وعلم الاجتماع .

نحن نعلم أن طبيعة التاريخ هى أحداث وقعت فى الماضى وانتهت والسبيل الوحيد لمعرفة ما خلفته من أصداء وما يُعثر عليه من وثائق مسجلة وكذلك ما يتخلف عنها من بقايا مادية ومخلفات أثرية^(١) .

إن المصادر والوثائق التى يحصل عليها الباحث فى التاريخ تقسم دائماً إلى قسمين . مصادر أصلية وأخرى ثانوية وما يهمننا هنا هو المصادر الأصلية وهى الوثائق المكتوبة أو المنقوشة باللغات القديمة مثل الخط الهيروغليفى والكتابة المسمارية واليونانية القديمة جنباً إلى جنب مع ما يكشف عنه من آثار مادية مشيدة أو مدفونة فى باطن الأرض تنتظر أن

1- F. M. Fling, The writing of History, An Introduction to Historical method (1926).

تكشف عنها أعمال الحفر والتنقيب الأثرية والتي يقوم بها رجال الآثار .

إن مادة البحث التاريخي متعددة ومختلفة في أنواعها وأزمنتها بحسب الموضوع الذي يعالجه المؤرخ أو الباحث التاريخي والذي كما سبق أن ذكرنا يعتمد على مصادر أصلية هي العمود الفقري في كتابة التاريخ ونقصد بذلك :

١ - الوثائق المكتوبة . ٢ - المخلفات الأثرية .

اخترع الإنسان الكتابة كوسيلة لتدوين وتسجيل أفكاره في شتى مظاهر الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية ، ومن أعمال الحفر والتنقيب بدأت تكتشف الوثائق المدونة في كل من مصر والعراق منذ حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد .

ففي مصر عرف الفراعنة اللغة المصرية القديمة ، وفي بلاد العراق عرف السومريون اللغة المسمارية ، ولقد قام سكان هاتين الدولتين بتسجيل الكثير من شئون حياتهم ودياناتهم كل بلغته ، وكان للنشاط الأثري الكبير في كل من بلاد الرافدين ووادى النيل الأثر الكبير في الكشف عن الكثير من أوراق البردي المكتوبة وكذلك المعابد والمقابر والتماثيل والألواح والنصب والأوستراكا المكتوبة بالخط الهيروغليفي والهيراطيقي والديموطيقي ، وكذلك على الألواح الطينية المكتوبة بالخط المسماري بالنسبة لحضارة بلاد الرافدين .

هذا الكم الهائل من الوثائق التي كشفت عنها أعمال الحفر والتنقيب هو الكنز الذي ينهل منه رجل التاريخ ، إذ من بين هذه

الوثائق نجد سجلات كالبيع والشراء والإيجارات والقروض والعقود المختلفة والتي تتعلق بالأحوال الشخصية كعقود الزواج والطلاق والتبني وسجلات المحاكم ، كذلك سجلات الدواوين الرسمية مما يتعلق بشئون الحكم والحكام والملوك ، أيضا هذه النصوص تحتوى على الرسائل الرسمية والشرائع واللوائح والقوانين علاوة على ما كانوا يقومون به من أعمال تجارية وحمولات حربية ورسائل متبادلة بين الملوك (أرشيف تل العمارنة) كذلك المعاهدات مع الممالك الأخرى (معاهدة رمسيس الثانى فرعون مصر مع ملك الحيثيين) (١ ، ٢)

حوت النصوص المسجلة أقدم النصوص الأدبية فى الشعر والنثر والحكم والأمثال والنصائح والملاحم البطولية والقصص والأساطير والتراتيل الدينية والشعائر الدينية التى كانت تمارس فى المعابد على اختلاف أنواعها من صلوات وطقوس خاصة بالمعابد والأعياد الدينية والرسمية والسحر والتعاويذ والرقى .
وتعد هذه النصوص ذخيرة هامة تمدنا بالمعلومات عن الأحوال الدينية وكيف كان للدين تأثيرات كبرى فى حياة الشعوب والمجتمعات القديمة .

وأخيراً وصلت إلى أيدينا نصوص ووثائق خاصة بالعلوم والمعارف الرياضية والفلكية والطبية والجيولوجية .

وأما المخلفات المادية : فهى المصدر الثانى الأصيل وتشمل جميع المخلفات التى وصلت إلينا من العصور القديمة ابتداء من

1- Zeuner, Dating the past, 1958.

2- Ancient Near Eastern Text (1969) Pritchard (ed.).

عصر ما قبل التاريخ بل ومنذ ظهور الإنسان على وجه الأرض (حوالى مليون سنة تقريبا) وهذه المخلفات نوعان بعضها أدوات وآلات حجرية صنعها الإنسان الأول ثم تنوعت هذه الأدوات والآلات خلال العصور التاريخية وشملت فنون العمارة كالمباني المختلفة وكذلك فنون الزخرفة والصناعات المختلفة الفخارية والمنحوتات إلى غير ذلك .

على أن بعض هذه المخلفات المادية التاريخية بعضها له شهرة عظيمة مثل الأهرامات في مصر والزيجورات بالعراق وأهرامات المكسيك والمعابد اليونانية وسور الصين العظيم علاوة على مئات المقابر والمعابد والآثار الأخرى في كثير من بلدان العالم القديم ، ولا يزال مدفوناً في باطن الأرض في بلدان الحضارات القديمة الكثير من الآثار والوثائق التي لم يكشف عنها حتى الآن ، وسبيلنا للتعرف عليها هو البحث والتنقيب من خلال الحفائر الأثرية العلمية المنظمة . ورجل التاريخ يحتاج كل هذه العناصر سواء كانت مكتوبة ، أو مادية كمادة لبحثه لأن التاريخ يتناول أمة من الأمم بالتنقيب في طوايا فكرها ومدى ارتباط ذلك الفكر بالدنيا والحياة ، ثم اتصاله بسيرة الإنسان في الأرض وجهوده المتصلة لرفع شأنه اقتصادياً وعلمياً وفكرياً ومدى ارتباط ماضى الأمم بحاضرها ، وحاضرها بمستقبلها ، وذلك هو التاريخ بأدق معانيه .

لقد سبق أن ذكرنا أنه لا تاريخ بدون وثائق لذلك نجد أن أصوات^(١) الماضى وهى موضوع البحث التاريخى عبارة عن

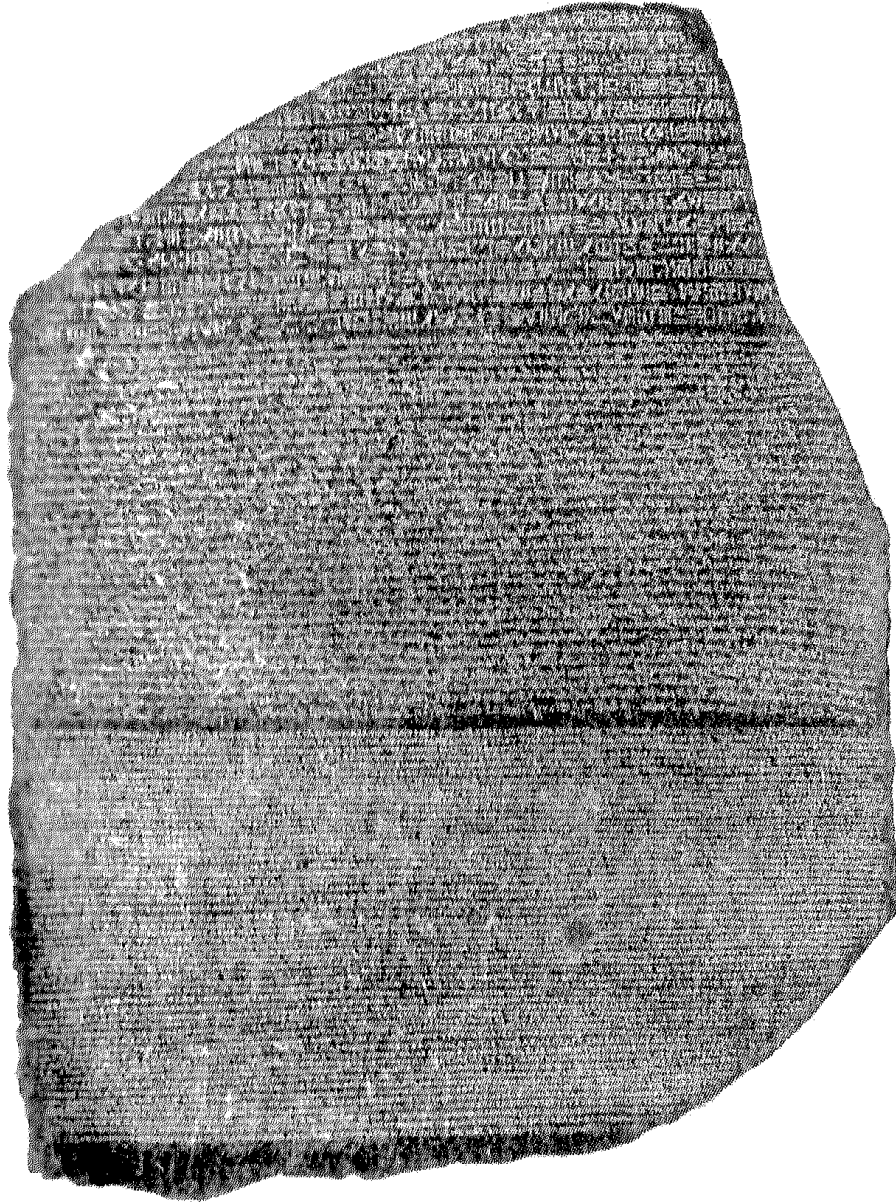
1- Arnold Toy nbee A study of History, oxford 1947.

وقائع حدثت ومضت ولم تترك لها إلا صدى في الوثائق الأثرية
سواء كانت وثائق مدونة ، أو سجلات مكتوبة أو آثاراً مادية ،
ونعنى باختصار شديد أن العصور أو الأدوار أو الأحداث التي
لم يتخلف عنها سجلات مكتوبة أو بقايا أثرية تبقى أحداثاً
مجهولة لا سبيل إلى معرفتها وتصورها ، ومن هذا نرى أن الآثار
تفعل فعلها البين والرئيسي في كتابة التاريخ .

ملحق الصور



١ - معد الكتاب أثناء قيامه بالحفر والتنقيب أمام الهرم الثالث بمنطقة
أهرام الجيزة ومعه رئيس عمال الحفر .



٢ - حجر رشيد الذي عثر عليه الضابط الفرنسي « بوسارد » عام ١٧٩٩ إبان حملة نابليون على مصر ، على بعد ٦ كم من مدينة رشيد ، وهو من البازلت ، وقد قام شمبليون بدراسته لحل لغز الكتابة المصرية القديمة .